

حِينَ لَمْ يَكُنِ
الْأَلَمُ عُدْرًا

رَدَّادُ السَّلَامِي



حِينَ لَمْ يَكُنِ الْأُمُّ عَذْرَاءَ

رَوَايَةُ

تَأْلِيفُ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

إِهْدَاءٌ

إلى الذين خرجوا من عتمةٍ طويلة، ولم يجعلوا عتمةً مصباحاً يحرق
الآخرين.

الفصل الأول: رائحة المطر في الممر

في ذلك الصباح، كان المطر يتساقط على المدينة كما لو أنه يعتذر عن غيابٍ طويل. لم يكن غزيراً؛ قطرات قليلة تتردد على زجاج النوافذ، ثم تنحدر متعرجةً، كأنها تبحث عن طريقٍ لا تعرفه. وقف سالم عند باب المركز، يحمل بيده كيساً ورقياً تفوح منه رائحة الخبز، وبالأخرى مفتاحاً صغيراً صدئاً ورثه عن أبيه. لم يكن للمفتاح بابٌ يفتحه، لكنه ظلّ يحتفظ به، ربما لأن بعض الأشياء التي فقدت وظيفتها تظلّ قادرة على تذكيرنا بمن كنّا.

كان المركز بيتاً قديماً حوّلَ أهل الحيّ إلى ملاذٍ مؤقت للصغار الذين لم يجدوا في بيوتهم مكاناً آمناً. لم يكن ملجأً بالمعنى الرسمي، ولا مؤسسةً تعرف طريقها إلى الأوراق المختومة. كان غرفةً واسعة، وساحةً مرصوفةً بحجارة غير متساوية، ومطبخاً صغيراً تغلي فيه الشاي امرأةٌ اسمها أمينة، وتقول للصغار إن العالم لم ينتهِ بعد، حتى حين يبدو لهم أن كل أبوابه أُغلقت.

دخل سالم فاستقبله صبيّ نحيل اسمه عاصم. كان يجرّ قدمه قليلاً، ويخفي يده اليسرى في كمّ قميصه. لم يسأله سالم عن اليد. تعلّم أن بعض الأسئلة تشبه الأبواب؛ إذا فُتحت قبل أوانها، دخل منها البرد. ناوله الكيس وقال: «خبزٌ

ساخن. لا تخبر أمينة أنني اشتريته من مخبزها المنافس». ابتسم الصبي ابتسامة صغيرة، ثم مضى، وكأن الضحك شيء ينبغي أن يجربّه بحذر.

في آخر الممرّ، كان رجلٌ يقفُ قرب النافذة. ظهره إلى الداخل، وكتفاه مشدودتان كأنهما تحلان سقفاً لا يراه أحد. لم يحتج سالم إلى وجهه كي يعرفه. هناك أشخاص يسبقهم ماضيهم بخطوات؛ يفتح لهم الذاكرة الباب قبل أن يطرقوا. قال الرجل من غير أن يلتفت: «ما زلت تشتري الخبز من المكان الخطأ».

أقلت المفتاح من بين أصابع سالم، وسقط على البلاط. لم يكن الصوت عالياً، لكنه أيقظ في صدره درجاً قديماً. رائحة الرطوبة، عتمة السلم، صوت أمه وهي تحاول أن تجعل الصحن يكفي ثلاثة. ثم صبيان عند الساقية، أحدهما يمدّ يده، والآخر يركض مبتعداً. بقيت الصورة ناقصةً سنوات، لكنها لم تفقد حدّتها.

التفت سالم إليه. كان الزمن قد حفر حول عيني ناصر أخدودين ضيقين، وترك في شعره بياضاً مبكراً. ومع ذلك ظلّ فيه شيء من ذلك الفتى الذي كان يضحك بصوتٍ مرتفع كي لا يسمع أحدٌ بكاءه. صاحفه سالم، فبقيت يد ناصر باردةً أكثر مما ينبغي.

قال ناصر: «لم أتوقع أن أجدك هنا».

أجابه سالم: «ولا أنا توقعت أن أراك».

لم تكن بينهما مصافحة صديقين التقيا بعد غياب؛ كانت أشبه بلمس جرح ليتأكد صاحبه أنه ما زال موجوداً. نظر ناصر إلى الأطفال الموزعين في الغرفة، إلى الكراسي المبعثرة، إلى النافذة التي لا تنغلق تماماً. قال: «تجمعون المكسورين هنا؟». قال سالم: «نحاول أن نوفر لهم مكاناً يستريحون فيه».

ضحك ناصر ضحكة قصيرة لا دفء فيها. «الراحة لا تغيّر شيئاً. سيكبرون، ثم يصيرون مثل الذين آذوهم».

لم يرد سالم سريعاً. كان قد عرف أن الرد المتعجل يرفع الصوت ولا يفتح المعنى. في الطرف الآخر من الغرفة، انحنى عاصم ليلتقط قطعة خبز وقعت منه. مرّ طفل أكبر به، فدفعه بكفته، ثم مضى. ظل الصغير ساكناً لحظةً، ينظر إلى الأرض كأنه يفاوض نفسه: هل يبكي أم يتظاهر بأن شيئاً لم يحدث؟

اقترب سالم منه، لم يوبّخه أمام الآخرين، ولم يقل له إن الأمر بسيط. جلس على ركبة واحدة وسأله إن كان يريد أن يترك القطعة أو يلتقط غيرها. لم يجب عاصم، لكن يده خرجت من الكمّ. كانت على معصمه كدمة داكنة، صغيرة في مساحتها، كبيرة في الصمت الذي يحيط بها.

رآها ناصر. لم يتغير وجهه، غير أن فكّه انطبق. قال بصوتٍ خفيض: «كل هذا جميل، لكنك لا تستطيع أن تمنعهم من أن يصيروا سيئين».

رفع سالم عينيه إليه. قال: «لا أستطيع أن أختار عنهم. أستطيع فقط ألا أكون أول من يعلمهم أن الأذى هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الناس».

عندها، التفت ناصر إليه تماماً. مرّت بينهما أعوامٌ كثيرة، غير أن السؤال الذي لم يجرؤ أحدهما على قوله ظلّ واقفاً في المسافة القصيرة بينهما. ثم قال سالم، كأنه لا يخاطب ناصر وحده، بل يخاطب الطفلين اللذين تركاهما ذات ليلةٍ عند الماء: «كان لي أنا أيضاً ماضٍ مؤلم، لكنني لم أتخذه يوماً عذراً لأصير إنساناً سيئاً».

هبطت الجملة في الممرّ، ولم يصدر عنها صوت. حتى المطر بدا كأنه خفّف طرقه على الزجاج. بقي ناصر محدّقاً به، وفي عينيه شيء لا يشبه الغضب وحده. كان في العبارة ظلمٌ محتمل، وربما حقيقةٌ موجعة. فالكلمات التي نجو بها لا تصلح دائماً لأن نحاكم بها الآخرين؛ وسالم، الذي عرف ذلك، شعر بثقلها بعد أن نطقها.

قال ناصر: «تظن أنني اخترت؟».

وللمرة الأولى، لم يجد سالم جواباً سريعاً. لم يكن يملك أن يفتح صدر الرجل ويرى ما تركه الزمن فيه، ولا أن يردّ إليه السنوات التي قضاها يتعلم كيف يخفي خوفه تحت هيئة القاسي. كان يعرف أن الماضي يشرح أشياء كثيرة، لكنه لا يعيد إليها براءتها. ويعرف أيضاً أن قول ذلك سهلٌ على من صار بعيداً عن حافة الهاوية.

اقتربت أمينة من الباب، تحمل إبريق الشاي. نظرت إلى الرجلين، ثم إلى المفتاح على الأرض، ولم تسأل. انحنى والتقطته، ومسحت عنه قطرة ماء تسلت من حذاء سالم. ناولته إياه وقالت: «بعض المفاتيح لا تفتح باباً، لكنها تذكّرنا ألا نغلقه في وجه أحد».

أخذ سالم المفتاح. أما ناصر، فظلّ ينظر إلى الكدمة على معصم عاصم. بدا كمن يرى شيئاً أبعد من الغرفة، أبعد من الطفل، أبعد حتى من نفسه. وللحظة خاطفة، ارتخت كتفاه. ثم عادت إلى مكانها، كأن جسده تذكّر المهمة التي أوكله بها قلبه منذ زمن: ألا يضع سلاحه.

في الخارج، ابتداءً المطر يغسل الدرجات الحجرية. وفي الداخل، جلس الأطفال حول الخبز. لم يكن أحد يعرف أن الرجل العائد سيبقى في المركز، ولا أن مفتاحاً صديقاً سيقودهم جميعاً إلى ليلة قديمة؛ ليلة ظن أهل الحي أن الصمت دفنها، بينما كانت تنمو في صدور الصبيين، كلٌّ على هيئة مختلفة.

قبل أن يغادر ناصر في ذلك اليوم، دخل عاصم إلى الغرفة التي ترك فيها معطفه. كان الصبي قد وجد في جيبه قطعة نقود معدنية، فوضعها على الطاولة وسأل سالماً إن كان يجوز أن يحتفظ بها. قال ناصر إنها له، ثم تردد حين مدّ عاصم يده. لم يأخذ القطعة منه؛ أخرجها ووضعها في جيب الصبي وقال: «أمانة حتى أعود». لم

يبتسم عاصم، لكنه لم يخفِ يده أيضاً. رأى سالم في الحركة الصغيرة باباً لم يفتح بعد، فتركه على حاله. كان قد تعلّم أن الرجاء إذا صاح صار ضغطاً، وأن الطفل لا ينبغي أن يُطلب منه أن يمنح الكبار علامةً على صلاحهم. عند العتبة، التفت ناصر إلى سالم وقال إن المطر يذكره بليلة الساقية. أجابه سالم بأن المطر لم يكن هناك. قال ناصر: «أعرف. لكن رائحته كانت في رأسي». ومضى دون أن يطلب تفسيراً من أحد.

الفصل الثاني: الرجل الذي عاد بلا حقيبة

لم يحمل ناصر حقيبةً، ولم يسأل عن غرفةٍ يبيت فيها. وقف في الساحة حتى فرغ الأطفال من الطعام، ثم خرج كما يدخل من لا يريد أن يترك أثراً. لكن الحي يعرف كيف يحفظ آثار العائدين: الباب الذي يُفتح ببطء، النافذة التي تنطفئ خلف ستارة، والعيون التي تنظر من شقوق البيوت ثم تنظاها بأنها لم تر شيئاً.

مشى في الأزقة التي حفظت وقع قدميه. عند دكان أبي رفيق، وجد اللافتة القديمة قد استبدلت، وصار المكان متجراً للأجهزة. لم يبقَ من طفولته سوى بئر جافة خلف المسجد، وجدارٍ قصير كان يقفز فوقه حين يتأخر عن البيت. تذكر كيف كان أبوه ينتظره عند الطرف الآخر من الجدار، لا ليسأله أين كان، بل ليعلمه أن الخوف لا يعفيه من الحساب. لم يكن الأب شريراً، قال ناصر لنفسه. كان متعباً. ثم أضاف، كما اعتاد أن يفعل: والتعب يجعل الناس قساة.

كان يجد لكل قسوةٍ اسماً يخفف وقعها. غضب أبيه تعب. صفعه أمه خوف. صمته هو حكمة. وحين كبر وصار يرفع صوته على من هم أضعف منه، سمى ذلك دفاعاً عن النفس. لم يكن يكذب تماماً؛ كان ينتقي من الحقيقة الجزء الذي يسمح له أن ينأى.

عند زاوية السوق، لمح رجلاً يصرخ في صبيّ يحمل صندوقاً. كانت اليد المرفوعة تعرف الطريق إلى الوجه قبل أن يأذن لها العقل. عرف ناصر تلك الحركة، وعرف اللحظة التي تسبقها. ربما كان يستطيع أن يتدخل. لكنه مرّ من جوار الرجل، تاركاً الصبيّ يتلقى التوبيخ، ثم قال لنفسه إن التدخل لا يصلح شيئاً. لم يكن هذا ما منعه؛ لكنه كان الاسم الذي اختاره لامتناعه.

في المساء، عاد إلى المركز. وجد سالم يدوّن أسماء الأطفال في دفترٍ أخضر. جلس قبالة من غير استئذان. قال: «هل تحفظهم هنا؟».

أجاب سالم: «أحاول أن أعرف ما يحتاجه كل واحد».

قال ناصر: «وهل تعرف ما يحتاجه من يؤذيهم؟».

أغلق سالم الدفتر. «أحياناً يحتاج إلى حدٍّ واضح. وأحياناً إلى من يوقفه قبل أن يصير ما يكرهه. لكن لا شيء من ذلك يحو حقّ من آذاه».

بدت العبارة لناصر كأنها نغمة. فلطالما ظن أن أمامه خيارين لا ثالث لهما: إما أن يُغفر له كل شيء لأنه تالم، وإما أن يُحكم عليه كله ويُنسى ما جرى له. لم يخطر له أن يرى الآخر مظلوماً من غير أن ينكر ظلمه هو.

قال: «أنت تتكلم كأنك لم تكن هناك».

لم يسأل سالم: أين؟ كلاهما يعرف المكان. الساقية القديمة عند أطراف الحيّ، حيث كانا يهربان من البيت ساعة الغروب. تلك الليلة لم تكن بداية كل شيء، لكنها كانت أول مرة رأى فيها سالم خوف ناصر عارياً، وأول مرة تركه وحده كي ينجو بنفسه.

قال سالم: «كنت هناك».

«إذا تعرف أنني لم أكن أملك شيئاً».

نظر إليه سالم طويلاً. «كنت طفلاً. نعم. لكنك الآن رجل، والفرق بين الأمرين ليس في العمر وحده».

تبدّل وجه ناصر. رفع يده عن الطاولة ثم أعادها، كما لو أنه تراجع عن حركة لم يلاحظها أحد. في الممرّ، ضحك طفلٌ بصوتٍ صافٍ، فأدار ناصر رأسه. لم يكن الضحك مألوفاً له؛ بدا آتياً من عالم لم يُدعَ إليه.

قال سالم: «هل جئت لتطلب شيئاً؟».

«جئت لأرى إن كنت ما زلت تظن أنك أفضل مني».

لم يتسم سالم. «لا أظن ذلك».

«لكنك قلت —»

«قلت إن الألم لا يبرر أن نصير مصدرًا لألم غيرنا. وهذا ينطبق عليّ أيضًا».

ثم أضاف، بعد سكون: «لا أملك حقّ محاكمتك، يا ناصر. لكنني أملك حقّ ألاّ أسمح لك بإيذاء هؤلاء الصغار».

مرّت في وجه ناصر ظلالٌ متتابعة، كأنّ كل كلمةٍ أيقظت شاهدًا كان يظن أنه مات. نهض، ودفع الكرسي إلى الخلف. وقبل أن يبلغ الباب، سمع سالم يقول: «إذا أردت أن تبقى، فابقَ بلا قناع. وإذا أردت أن ترحل، فلا تجعل رحيلك عقوبةً لنا».

لم يلتفت ناصر. خرج إلى المطر الذي عاد خفيفًا، تاركًا وراءه رائحة دخانٍ قديم. وفي الدفتر الأخضر، كتب سالم إلى جوار اسمه: «يعود حين يصدق أن العودة ليست هزيمة». ثم شطب العبارة. لم يكن يحقّ له أن يكتب نيايةً عن رجلٍ لم يختبر بعد.

حين وصل ناصر إلى منزلٍ صغيرٍ استأجره في طرف السوق، لم يشعل الضوء. جلس في العتمة وأخرج من جيبه الورقة القديمة، ثم فردها للمرة الأولى منذ أعوام. لم يقرأها كاملة؛ كانت موجهةً إلى أمه، وفيها اعتراف بأنه لم يكرهها، لكنه كره خوفها الذي تركه وحده. عرف الآن أن الرسالة ظالمةٌ في بعض مواضعها، وأنه كتبها وهو لا يرى إلا وجهه. لم يمزقها. أضاف في أسفلها تاريخ اليوم، ثم

كتب: «لا أعرف إن كنت أستطيع فهم ما خفته، لكنني أعرف أن خوفي لم يكن وحده». طواها وأعادها إلى جيبه. لم يكن يكتب ليصلح ماضياً مات أصحابه، بل لمنع الذاكرة من أن تظل محكمة لا يدخلها إلا اتهامه للآخرين.

لم تكن عودته إلى الحيّ مصادفةً محضة. قبل شهرٍ من ذلك، اتصل به صاحب البيت القديم ليخبره أن السقف ينهار، وأن عليه أن يقرر: يبيعه أم يصلحه. ظلّ ناصراً يؤجل الردّ حتى جاءه خبرٌ عن المركز وعن طفلٍ ينام هناك لأنه لا يشعر بالأمان في بيته. لم يكن يعرف عاصماً، ولم يكن يظن أن قصته تخصه. لكنه سمع في الخبر جملةً قديمة: «لا تقل لأحد». هكذا بدأت حكايته هو أيضاً، بجملةٍ أغلقت بها الأبواب قبل أن يعرف أن ثمة أبواباً أخرى. حين وصل إلى الحيّ، بقي في الحافلة حتى خلت المقاعد من الركاب. لم يرد أن يراه أحد قبل أن يقرر ما الذي جاء يفعله. ثم ترجل بلا حقيبة، كأن امتلاك شيءٍ قد يجبره على البقاء. لم يكن يعرف أن العودة ستعيد إليه من ظنّ أنه تركهم، وأنها ستضعه أمام نفسه في غرفةٍ ضيقةٍ تفوح منها رائحة المطر والخبز.

الفصل الثالث: بيتٌ يضيقُ بأهله

في طفولته، كان سالم يظن أن البيوت تكبر حين يفرح أهلها، وتصغر حين يغضبون. لم يعرف أن الجدران تبقى في موضعها، وأن الذي يتبدل هو الهواء بين المرء ومن يحب؛ فإذا ثقل ذلك الهواء، ضاقت الغرفة ولو اتسعت نوافذها. كان يهتم من غرفتين، في طرف الحيّ، تتسلل الرطوبة إلى أطرافه في الشتاء، وتبقى رائحة الحطب عالقةً بسقفه حتى بعد انطفاء النار. ومع ذلك كانت أمّه تستطيع أن تجعل من المائدة الصغيرة مكاناً يتسع لثلاثة أحلام: أن يكبر سالم، وأن يشفى أبوه من ضيقه، وأن تعود الأيام أقل قسوةً مما كانت.

لم تكن أم سالم امرأةً كثيرة الكلام. كانت إذا ضاقت بها الحياة ربت الأشياء: تطوي الثوب، تمسح الرف، تضع الإبريق فوق النار، وتعيد إلى كل شيء مكانه كأنها تقول للفوضى إن لها حدوداً، ولو في غرفةٍ واحدة. وحين يعود ابنها من المدرسة حافياً أو متأخراً، كانت تنظر إلى قدميه أولاً؛ لا لتعاتبه، بل لتعرف إن كان الطريق قد آذاه. ثم تسأله عن الدرس. لم تكن تسأله ماذا فعل بك الأولاد، لأن السؤال قد يفتح باباً لا يملك طفلٌ مثله أن يغلقه. كانت تعرف أن الفقر لا يحتاج إلى شاهد، فهو حاضرٌ في كل شيء: في الحذاء الذي يُرَقّع من الداخل، وفي الدفتر الذي يترك نصفه أبيض كي يكفي إلى آخر الفصل.

أما أبوه فكان يعود من عمله متعباً، وعلى وجهه ذلك الصمت الذي يسبق انطفاء المصباح. لم يكن رجلاً قاسياً في كل حين؛ وهذا ما جعل الخوف منه معقداً. قد يرفع سالماً إلى كتفيه إذا مرّت بهما عربةٌ في الطريق، وقد يوبخه على كأسٍ انكسر كأنه كسر معه ما تبقى من احتماله. كان في صدر الأب جرحٌ لا يعرف اسمه، لكنه لم يتعلم أن يراه جرحاً؛ تعلم أن يراه غضباً، وأن يترك الغضب يتكلم عنه. وظل سالم طويلاً يخلط بين الحبِّ والخشية، يظن أن الذي يخافك يجبك بقدر ما يخاف أن يفقدك.

في ليلةٍ باردة، عاد أبوه وقد خسر أجر يومين بسبب صاحب الورشة. جلس عند الباب، ولم يخلع حذاءه. قالت أم سالم إن العشاء جاهز، فهزّ رأسه دون أن ينظر إليها. كان سالم قد اشترى من دكان قريب مصباحاً صغيراً مستعملاً، ووضعه قرب فراشه ليقراً بعد انطفاء السراج. حين رآه أبوه، سأله من أين جاء به. ارتبك الصبي، وقال إنه ادخر ثمنه. لم تكن كذبةً كاملة؛ لكنه لم يخبره أن أمّه أضافت إليه بعض النقود. مدّ الأب يده، وأخذ المصباح، ثم ضربه على الأرض. تناثر الزجاج، وانطفأ الضوء الصغير قبل أن يضيء غرفةً واحدة.

لم يبك سالم. جمع القطع بحذر، وجرح إصبعه. أمّه أسرعّت إليه، بينما ظل أبوه جالساً يحدق في فراغٍ لم يكن فيه شيء. بعد قليل قال الرجل: «لن تصير حياتك أفضل لأنك تسهر على كتاب». لم يجبه الصبي. كان يفكر أن المصباح لم يكن وعداً

بمستقبل أفضل، بل نافذة صغيرة في ليلة لا يريد أن ينام فيها خائفاً. لم يفهم ذلك الأب، أو لعله فهمه ولم يحتمل أن يرى ابنه يطلب شيئاً لم يقدر هو على منحه.

في الصباح، وجد سالم المصباح مصلحاً عند رأس فراشه. لم تسأله أمه من أصلحه. بقي المصباح يضيء سنوات، لكنه لم ينسَ الليلة التي انكسر فيها. لم ينسَ كيف كاد الغضب أن يسلبه رغبته في القراءة، ثم كيف أعادها إليه فعلٌ هادئ لا يعلن عن نفسه. يوماً أدرك، دون أن يصوغها عبارةً، أن الإنسان لا يختار الجرح الذي يصيبه، لكنه يختار أحياناً ألا يمرره إلى يدٍ أخرى. لم تكن تلك حكمةً مكتملة؛ كانت بذرةً صغيرة، وجدت في صدره تراباً من الخوف، ثم قاومته.

بعد أعوام، حين مات أبوه، لم يستطع سالم أن يبكيه كما يبكي الناس آباءهم في القصص. بكى أشياء متفرقة: ضحكة نادرة، يداً خشنة حملته يوماً فوق كتفها، باباً ظلّ يفتحه بعنف، واعتذاراً لم يسمعه. عرف أن الغفران لا يعيد الماضي إلى صورته الأولى، وأن الحب لا يلزم الإنسان بأن ينكر الأذى الذي جاءه من يد الحب. لكنه لم يجعل من أبيه وحشاً كي يبرر نجاته، فالأموات لا يتغيرون، غير أن الأحياء قد يتعلمون أن يضعوا لكل ذكرى اسمها الصحيح.

عاد سالم إلى الغرفة الصغيرة في المركز، بعد أن ترك ناصر يمضي. فتح خزانة قديمة لبحث عن ضمادات لعاصم، فسقط منها مصباح جيب صغير، أسود، لا يعمل.

التقطه ومرّر إبهامه على زجاجة المعتم. وحين سألته أمينة عنه، قال إنه كان لأبيه. لم يقل إنه احتفظ به لأنه يشبه المصباح الذي انكسر ذات مساء، ولا إن بعض الأشياء لا تتقدنا بقدر ما تشهد على أننا لم نصبح نسخةً ممن آذونا.

بعد وفاة الأب، كانت أم سالم قد اعتادت أن تترك نصف الباب مفتوحاً نهاراً. تقول إن الهواء إذا دخل إلى البيت خفّ ما فيه. في يوم عاد سالم من المدرسة ووجدها تصلح قيصاً قديماً، فجلس إلى جوارها وسألها لماذا لم تترك أباه حين اشتد به الغضب. لم تغضب من السؤال. قالت إنها لم تعرف وقتها كيف تخرج من حياتها، وإن الفقر والخوف يجعلان الباب يبدو أثقل من أن يُدفع. ثم قالت إنها لا تريد أن تكون قصتها جواباً جاهزاً لغيرها؛ فكل امرأة لها ما تقدر عليه وما لا تقدر. كان سالم يسمع للمرة الأولى أن الكبار لا يملكون دائماً خطةً سرية للنجاة. أحياناً يفعلون ما يستطيعون، ثم يتعلمون متأخرين أسماء ما لم يستطيعوا فعله.

في إحدى الليالي، عاد الأب إلى البيت وثوبه مبللٌ من المطر. لم يكن قد وجد عملاً في الورشة، فجلس قرب الموقد ومدّ يديه إلى النار. كان سالم يراقبه من الباب، ينتظر أن يعرف أيّ وجهٍ سيقابله: وجه الرجل الذي يحكي له عن الجبال، أم وجه الغضب الذي يجعل الغرفة كلها تحبس أنفاسها. رأى أباه يخلع حذاءه ببطء، ثم يخرج من جيبه قطعة خبزٍ يابسةً ويضعها أمام أمه. قال إنه لم يأكلها في الطريق كي تكفيهم. لم يسمح ذلك ما فعله بالمصباح، ولم يردّ إلى البيت أمانه،

لكنه جعل سالم يفهم أن الإنسان قد يحمل في صدره عجزاً وحناناً وأذى في آنٍ واحد. لم يكن عليه أن يختار ذكرى واحدة كي يصدق. حينها لم يعرف كيف يفصل بين حبه وخوفه، لكنه بعد سنواتٍ أدرك أن رؤية تعقيد أبيه ليست تبرةً له، وأن تسمية الأذى لا تستلزم إنكار كل ما كان فيه من خير. بقي الأب بشراً، وهذا أصعب من أن يكون وحشاً بسيطاً أو بطلاً غائباً.

الفصل الرابع: دفتر الغياب

في اليوم التالي، وجدت أمينة الدفتر الأخضر مفتوحاً على الطاولة. كان سالم قد كتب أسماء الصغار واحداً واحداً، وإلى جوار كل اسم ملاحظة صغيرة: «يخاف من الصوت العالي»، «لا يحب أن يأكل أمام الآخرين»، «يستيقظ قبل الفجر»، «يخفي يده». لم يكن يقصد أن يحولهم إلى ملفات، بل أن يمنح لكل وجع وجهها لا يضيع في زحام العناوين العامة. فالناس حين يقولون: «هؤلاء أطفال مضطربون»، يريحون أنفسهم من سؤال أصعب: من الذي اضطرب حياتهم؟

جلست أمينة قبالتها، تقلب الصفحات دون أن تقرأها. قالت إن عاصم لم يأت إلى المركز منذ يومين قبل أن يصير مقيماً فيه، وإن أباه يسأل عنه أحياناً من بعيد ثم يغادر قبل أن يراه. لم يعلق سالم. دون موعداً لزيارة البيت. كانت الزيارة أصعب من إبقاء الطفل في المركز؛ ففي البيت قد يكون الخطر محبوساً خلف باب مألوف، وقد يكون الأمان هو الشيء الغريب الذي لا يعرف الطفل كيف يصدقه. ومع ذلك، لم يكن يحق لهم أن يسموا الهرب حلاً، ولا أن يعيدوا الصغير إلى الخوف لأن الأوراق تقول إن له بيتاً.

وصل ناصر عند الظهيرة، في الوقت الذي يتقاطع فيه ظل شجرة التوت مع عتبة المركز. لم يدخل. وقف خارج الباب يتابع عاصماً وهو يرسم بقلم أزرق طريقاً ينتهي

عند بيتٍ بلا نوافذ. قال سالم: «يمكنك أن تدخل». أجابه ناصر: «لم آت من أجلك». كان في يده ظرفٌ بنيّ، رقيق الخواف، كأنه ظلٌّ في جيبه طويلاً. ناوله إلى سالم، ثم تراجع خطوةً. على الظرف اسمٌ بخط مرتجف: عاصم.

لم يفتح سالم الرسالة أمامه. قال ناصر إن الرجل الذي دفع الصبي في اليوم الأول هو عمه، وإنه سيأتي ليأخذه قبل المساء. لم تكن في نبرته شفقةٌ ظاهرة، بل ضيقٌ من مشهدٍ رآه وعجز عن تجاهله. سأله سالم كيف عرف. ردّ: «الحيّ يتكلم». ثم أضاف: «ويصمت حين يجب أن يتكلم». لم تكن الجملة عتاباً لسالم وحده، كان ناصر يضع نفسه فيها، لكنه لم يرفع عينيه إليه.

قرأ سالم الرسالة بعد أن خرج ناصر. لم تكن طويلة: «عاصم، إذا رجعت اليوم، سأضربك لأنك فضحتنا عند الناس. لا تقل لأحد ما يحدث في البيت. عمك». بقيت الكلمات قليلة، لكن ما وراءها كان أثقل من الورقة. طواها سالم ببطء، ولم يتركها في الدفتر. في بعض الأحيان تكون الكتابة طريقةً لحفظ الدليل، وفي أحيانٍ أخرى تكون دعوةً إلى أن يجرؤ المرء على تسمية ما يحدث. قال لأمينه إنه سيذهب إلى الجهات المختصة، وإنه لن يعيد الطفل إلى البيت قبل أن يتأكد من سلامته.

قالت أمينة: «والرجل؟». أجاب: «لن أذهب وحدي». كان يقصد أن يرافقه أحدٌ من أهل الحيّ، لكنه حين رفع رأسه رأى ناصر ما يزال عند البوابة. كأنه سمع الجواب من مسافةٍ لا تسمح بها المسافة. لم يوافق، ولم يرفض. اكتفى بأن قال: «أعرف البيت».

سارا معاً بعد العصر، لا يتقدّم أحدهما الآخر. في الطريق، حدّثه ناصر عن الأرزقة التي لم تتغير، وعن البيوت التي بدّلت أبوابها بعد موت أصحابها. لم يتحدثا عن الطفولة. كان الصمت بينهما يعمل، كما تعمل يدٌ خفية على عقدةٍ قديمة: لا تفكها دفعةً واحدة، بل تختبر أين اشتدّ الخيط وأين لان.

حين وصلا، كانت رائحة الطعام تخرج من نافذة المطبخ، بينما وقف عاصم خلف ستارةٍ باهتة. لم يطلب سالم من الرجل أن يفتح الباب. قال له إن هناك بلاغاً، وإن الطفل لن يعود إلى مكانٍ لا يشعر فيه بالأمان. ردّ الرجل بأن البيت يتيه، والولد ولده. كانت هذه الجملة قد استخدمت عبر القرون لتبدو كأنها حجةٌ مكتملة، مع أنها لا تشرح إلا من يملك المفتاح. قال ناصر بهدوء: «البيت ييتك، أما جسده فليس ملكاً لأحد».

سكت الرجل. من خلف الزجاج، رفع عاصم يده إلى الستارة، ثم تركها. لم يكن المشهد انتصاراً؛ لم يصفق أحد، ولم يعتذر الرجل. لكن الباب ظلّ مغلقاً حتى

وصلت الموظفة المختصة، وبقي الطفل في الجهة التي لا تضطره إلى الاختيار بين الصمت والضربة التالية. في طريق العودة، لم يقل ناصر إنه فعل الصواب. قال فقط: «كان ينبغي أن أفعل هذا قبل سنوات». ولم يسأله سالم: أي سنوات؟ كان السؤال يعرف طريقه إلى كليهما.

بدأ سالم يضع في الدفتر خانةً جديدةً بعنوان «ما الذي اختاره الطفل؟». لم تكن إجابات الصغار خططاً مكتملة، لكنها كشفت تفاصيل لا تظهر في تقارير الكبار: عاصم يريد أن يُطرق بابه قبل الدخول، ورامي لا يحب أن يُسأل أمام المجموعة، وطفلةٌ صغيرة تفضل أن يكون لها مقعدٌ قرب النافذة. كتب هذه الأمور كما تُكتب المواعيد المهمة. حين رأى ناصر القائمة، قال إن هذه أشياء بسيطة. أجابه سالم أن البسيط هو ما ينساه الأقوياء حين يصيرون أصحاب قرار. أخذ ناصر القلم وكتب إلى جانب اسمه: «أحتاج أن يُقال لي إذا تجاوزت حدي». لم يضحك. لم يكن الاعتراف نكتةً، بل اتفاقاً أولياً أن يراقب كلُّ منهما أثره في المكان.

الفصل الخامس: ما لا تقوله الجدران

في المساء، هبطت على الحيّ رائحة الطين المبلل. جلس سالم قرب نافذة المركز، يراقب الشارع من غير أن ينتظر أحداً. كان يعرف أن ناصر سيعود، أو يأمل ذلك، وبين المعرفة والأمل مساحةٌ لا يعترف المرء بها إلا حين يخاف أن يخيب. دخلت أمينة تحمل كوين من الشاي، ووضعت أحدهما أمامه. قالت: «الناس لا يتغيرون في يوم». أجاب: «أعرف». قالت: «لكنك أحياناً تنصرف كأنك تطلب من جرح قديم أن يعتذر».

لم يردّ. كانت أمينة تعرف كيف تصيب المعنى من غير أن ترفع صوتها. لم يكن ينتظر من ناصر أن يعتذر عن كل ما مضى، لكنه ظلّ يتنّى، في مكانٍ صغير من نفسه، أن يسمع منه جملةً واحدة تعيد الاعتبار إلى الطفل الذي تركه عند الساقية. كم مرة ينبغي أن تتوقف الحياة كي يمنحنا أحدهم اعتذاراً؟ وكم مرة نظن أن الاعتذار هو الباب الوحيد، فيما قد يكون الباب الحقيقي أن نكفّ عن الوقوف في الممرّ؟

في تلك الليلة القديمة، لم يكن سالم بطلاً ولا جباناً كما أحبّ أن يصنّف نفسه في السنوات اللاحقة. كان ولداً خائفاً، سمع صراخ ناصر من أسفل الطريق، ورأى ظلال رجلين يقتربان من الساقية. كان يستطيع أن ينادي أمّه، أن يوقظ الجيران،

أو أن يهرب. اختار أن يهرب. ركض حتى البيت، ثم ظلّ صامتاً حين سأله أبوه أين كان. وفي الصباح، أخبره أن ناصر سقط في الماء وحده. كانت الكذبة صغيرة، لكنها فتحت في ذاكرته بئراً ظلّ يطلّ عليها كلما ظنّ أنه صار رجلاً أفضل.

لم يعرف يوماً أن ناصر لم يسقط وحده. كان أبوه قد لحق بهما، غاضباً، وجّه من قيصه. حاول سالم أن يفلت، ثم ركض. أما ناصر فظلّ عند طرف الساقية، يشدّ طرف قيصه الممزق، وينظر إلى صديقه يبتعد. لم يضربه سالم بيده؛ لكنه تركه وحيداً، وأحياناً تكون الوحدة ضربةً لا تترك علامةً على الجلد، لذلك يصعب على الناس تصديقها.

ظلّ سالم يروي لنفسه نسخةً مهذبة من الحكاية: إنه كان صغيراً، وإن الخوف غلبه، وإنه لم يكن يقدر على مواجهة رجلٍ أكبر منه. كانت هذه حقائق، لكنها لم تكن كل الحقيقة. لم يكن الألم عذراً حين آذى ناصرًا، كما لم يكن خوفه بطولاً. تعلّم أن يعترف بهذا من غير أن يجعل الاعتراف سوطاً يجلد به نفسه إلى الأبد. فالندم الذي لا يقود إلى إصلاح يصبح شكلاً آخر من حبّ الذات؛ ينشغل المرء بالآلامه حتى لا يلتفت إلى من آذاهم.

عاد ناصر في ساعةٍ متأخرة. هذه المرة دخل إلى الغرفة وجلس دون أن يخضع معطفه. قال: «هل أخبرك سالم الصغير بما فعله؟». لم يقل: هل أخبرك أنا. أجابه سالم: «لا». فتأمل ناصر يديه. ثم قال إنه تذكر الساقية. تذكر صراخ أبيه، والبرد، والطين في فمه، وصوت خطوات سالم وهو يركض. لم يكن يعرف إن كان سالم خائفاً أم كارهاً له. كان يعرف فقط أنه ناداه، وأن النداء لم يوقف الخطوات.

قال سالم: «كنت خائفاً». ردّ ناصر: «وأنا أيضاً». لم تكن الجملتان متناقضتين، لكنهما لم تتساويا في الأثر. يمكن للخوف أن يسكن قلبين، ثم يدفع أحدهما إلى النجاة ويدفع الآخر إلى الوحدة. قال سالم إنه كذب في الصباح، وإنه ترك ناصر يحمل الحكاية وحده أعواماً. لم يضيف اعتذاراً كبيراً ولا شرحاً طويلاً؛ قال: «آسف. لم أكن أملك الشجاعة يومها، وكان ينبغي أن أقول هذا منذ زمن».

ظل ناصر صامتاً. لم يقل إنه سامحه، ولم يقل إنه لن يسامحه. كان على وجهه تعب من اعتاد أن يطلب من الناس إما البراءة الكاملة أو الإدانة الكاملة. قال أخيراً: «كنت أظن أنك نسيت». قال سالم: «لم أنس». ثم وضع أمامه كوب الشاي الذي برد. لم تكن الحركة كافيةً لتصالح، لكنها لم تكن تمثيلاً. في العالم الذي عاشا فيه، ربما كانت الحقيقة الصغيرة أول ما يستطيعان حملة معاً.

من الممرّ جاء صوت عاصم ينادي أمينة. نهض ناصر قبل سالم، ومضى إليه. توقف عند الباب، وسأل الصبي إن كان يريد ماءً. لم يمدّ يده، ولم يقترب أكثر مما يحتمل الطفل. انتظر جوابه. كان ذلك أول سؤالٍ يطرحه ناصر على صغيرٍ لا يتوقع منه طاعةً فورية. وفي المسافة بين السؤال والانتظار، بدت الجدران القديمة أقل صمتاً؛ لا لأنها تكلمت، بل لأن أحداً أخيراً أصغى إلى ما ظلت تحفظه.

في الليلة التي لم يستطع فيها النوم، عاد سالم إلى المركز وحده. وقف عند الغرفة التي كان يجلس فيها ناصر، ووضع كفه على الجدار. لم يكن في الجدار سرٌّ يسمعه، لكنه ظلّ يتخيل أن البيت القديم حفظ كل ما عجزوا عن قوله. تذكر أنه بعد الساقية لم يسأل عن ناصر أسابيع، ثم قال لنفسه إنه لا يستطيع تغيير شيء. حينها لم يكن يدرك أن الصمت قد يتحول من أثرٍ للخوف إلى عادةٍ مريحة. كتب على ورقةٍ صغيرة: «ما الذي كنت أستطيع فعله؟» ثم كتب تحتها: «أن أقول الحقيقة لأي». لم يكن الجواب يعيد الصبيين، لكنه أعاد إلى سالم جزءاً من المسؤولية التي ظلت مبعثرة في الهواء.

الفصل السادس: الصبيان عند الساقية

كانت الساقية أضيّق مما احتفظت به الذاكرة، وأقل عمقاً مما صنعه الخوف في الحكاية. أخذ ناصر سالم إليها بعد ثلاثة أيام، لا ليختبر شجاعته، بل ليضع المكان بينهما بدل أن يظلّ جالساً في الغرفة كقراضٍ صامت. كانت الحجارة قد اسودّت من المطر، ونبت عشبٌ شاحب عند الحافة. قال ناصر: «هنا كنت أظن أنني سأموت». فأجابه سالم: «وأنا كنت أظن أنني إذا ركضت فسأنجو». لم يضحكا. الحقيقة حين تظهر متأخرة لا تأتي خفيفةً، حتى لو نطقها المرء بصوت هادئ.

جلسا فوق الجدار المنخفض. أخبره ناصر أن أباه كان قد تبعهما تلك الليلة بعد شجارٍ في البيت. لم يرد أن يضرب سالم، لكنه قبض على قيص ناصر وجذبه، فسقط الصبي عند الماء. سالم ركض، أما ناصر فظلّ يسمع وقع خطواته تبتعد، وكان في تلك الخطوات ما هو أقصى من قبضة الرجل: أن الصديق اختار النجاة من غير أن يلتفت. قال سالم: «لم أرك تسقط». قال ناصر: «لكنك سمعتني أنادي». لم ينكر سالم. ظلّ الصمت بينهما حتى صار الاعتراف أقل قسوة من المراوغة.

لم يقل سالم إنه كان طفلاً؛ قال إنه كان خائفاً، وإن خوفه لم يمنع الأذى من الوقوع. فالطفولة تخفف الحكم، لكنها لا تحو أثر ما حدث في قلب طفلٍ آخر.

وناصر، من جهته، لم يطلب منه أن يدفع عمراً كاملاً ثمن دقيقة واحدة. كان يريد أن يعرف إن كان سالم يتذكره كما كان، ضعيفاً ومذعوراً، لا كما صار الرجلان يرويان الحكاية عن نفسيهما. في بعض الذكريات لا يطلب المكسور تعويضاً، بل شاهداً يقول: نعم، حدث ذلك، ولم تكن نتوهم.

قبل أن يغادرا، وضع ناصر حجراً صغيراً عند الحافة. قال إنه جاء قبل أعوام كثيرة، لكنه لم يستطع النزول. لم يسأله سالم لماذا الآن. فالأعوام لا تجعل المرء جاهزاً دائماً؛ أحياناً تجعل الحقيقة أثقل، حتى يضطر صاحبها أخيراً إلى حملها. وفي طريق العودة، مرّا بصبيين يتدافعان قرب الدكان. رفع أحدهما يده، فتوقف ناصر، وانحنى بينهما، لا ليصرخ، بل ليسأل من بدأ. كانت خطوة عادية في عين المارة، لكنها بالنسبة إليه أول مرة يختار فيها ألا يكرر حركة ورثها من رجل خائف.

عاد ناصر إلى الموضع وحده في اليوم التالي. لم ينزل إلى الماء؛ اكتفى بأن وقف حيث وقف سالم قديماً، ثم نظر إلى الطريق الذي ركض فيه. لم يكن الطريق طويلاً، لكن الذاكرة جعلته يمدّ إلى آخر العمر. التقط حجراً من الحافة وقلبه بين أصابعه، وتساءل كم من مرة حمل ألمه إلى بيت آخر، ثم تركه هناك كأن أحداً غيره كتبه له. حين رجع، لم يخف ارتبأكه عن أمينة. قال إنه لا يعرف إن كان الذهاب إلى الساقية قد ساعده. أجابت بأن بعض الخطوات لا تشفي، لكنها

تكشف أين تؤلم القدم. وضع الحجر في جيبه، ثم أخرجه عند الباب وتركه على العتبة؛ لم يرد أن يحوّل المكان إلى تذكارٍ يملكه.

في طفولتهما، كانا يلتقيان عند الساقية لأن المكان يبعد عن البيوت ولا يسأل أحدٌ فيه عن سبب الصمت. كان ناصر يرمي الحصى إلى الماء، ويحسب الدوائر، بينما يحكي سالم عن الكتب التي يريد أن يقرأها حين يكبر. لم يكن ناصر يسخر من أحلامه؛ كان يصغي كما لو أن الكتب ستخرجهما معاً من الحيّ. وحين وعدا بعضهما أن يسافرا إلى مدينةٍ بعيدة، لم يسألا كيف ولا متى. كان الوعد أكبر من قدرتهما، لكنه منحهما عصراً كاملاً من الخفة. لذلك بقيت ليلة الساقية موجعةً؛ لم تكن مجرد لحظة خوف، بل اللحظة التي انقسم فيها حلمٌ مشترك إلى طريقتين لا يعرف أحدهما كيف يصل إلى الآخر.

الفصل السابع: الرسالة التي لم تصل

وصلت إلى المركز رسالةً بلا اسم مرسل، مكتوبة على ورقةٍ اقتطعت من دفتر مدرسي. وضعها عاصم أمام سالم، وقال إن عمه أرسلها مع جارٍ. لم يكن فيها تهديد صريح، بل دعوةٌ إلى أن يعود الولد إلى البيت وأن «ينسى الجميع ما حدث». العبارة بدت مهذبةً، وهذا ما جعلها مخيفة. فالأذى حين يطلب من شخصيته أن ينساه، لا يطلب الصفح؛ يطلب أن يستعيد سلطته من غير أن يغيّر شيئاً. قرأ سالم الرسالة مرةً، ثم أعادها إلى عاصم ليسأله إن كان يريد الاحتفاظ بها أو تسليمها للموظفة المختصة.

اختار عاصم أن يضعها في الدفتر، بين صفحةٍ كتب فيها اسم أمه وصفحةٍ رسم فيها بيتاً له نافذة واسعة. لم يكتب اسمه كاملاً. قال إنه لا يعرف إن كانت أمه ستعود إليه، وإنه يفضل ألا يكتب وعداً لا يملكه. لم يعظه سالم بالأمل. كان يعرف أن الأمل إذا فرض على المتألم صار عبئاً إضافياً، وأن الطفل لا يحتاج إلى أن يطلب منه التفاؤل بقدر ما يحتاج إلى بالغٍ يفي بوعده صغير: أن يكون موجوداً بعد ساعة، وأن يقول الحقيقة حين يسأله عن الغد.

في المساء، حضر ناصر إلى المركز ومعه صندوق أدوات. أصلح قفل الباب الخارجي الذي ظلّ يعلق كلما أغلق، ثم جلس مع عاصم يربط مقبض النافذة. لم

يكثر من الكلام. كان يترك الصبي يختار موضع البرغي، ويعيد إليه المفك كلما طلبه. بدا المشهد بعيداً عن الألفة، لكنه كان أول عملٍ مشترك بينهما. قال عاصم فجأةً: «هل كنتَ تخاف وأنت صغير؟». توقف ناصر عن شدّ البرغي، ثم أجاب: «كنت أخاف كثيراً، وأتصرف أحياناً كأنني لا أخاف». اكتفى الصبي بهذا الجواب، كأنه عرف فيه شيئاً من نفسه.

بعد أن غادر الأطفال إلى غرفهم، أخرج ناصر من جيبه ورقةً قديمة مطوية أربعاً. قال إنها رسالة كتبها لأمه ولم يرسلها. ماتت أمه قبل أن يجرؤ على تسليمها، وظلّ يحملها في جيبه سنوات، لا لأنها ستصل، بل لأنها ثبت أنه حاول مرةً أن يقول ما لا يقدر عليه. لم يفتحها لسالم. قال إن الرسائل التي لا تصل لا تصبح بلا قيمة؛ أحياناً تكون أول مرةٍ يعترف فيها المرء لنفسه بما ظلّ ينكره. وأعاد الورقة إلى جيبه، كمن يعيد إلى صدره قطعةً لم تجد مكانها بعد.

في صباح اليوم التالي، سأل عاصم عن الورقة التي وضعها في الدفتر. قال سالم إنها محفوظة مع الأوراق التي تخص سلامته، وإنه يستطيع أن يقرأها متى أراد أو يطلب إعادها. طلب الصبي أن يراها. قرأها بصوتٍ متقطع، ثم سأل إن كان عليه أن يرد. قال سالم إن عليه ألا يفعل شيئاً لا يريده، وإنهم سيتولون التواصل الرسمي. طوى عاصم الورقة بنفسه. لم يعدها إلى الدفتر، بل وضعها في ظرفٍ جديد كتب عليه: «هذا ما قاله عمي، وليس ما أصدقه عن نفسي». لم يصحح له

سالم العبارة. كان ذلك أول سطر يضع فيه الصغير حداً بين صوت المؤذي وصوته هو.

طلب عاصم من سالم أن يساعده في كتابة رسالة إلى أمه. لم يعرف ماذا يقول، فبدأ بجملته ثم شطبها. اقترح سالم أن يكتب ما يريد فقط، لا ما يتوقع أن يرضيها. كتب الصبي: «لا أعرف متى أريد أن أراك. أريد أن أعرف أنك بخير، لكنني لا أريد أن أعود الآن». بقي ينظر إلى السطر طويلاً، ثم أضاف: «إذا غضبت، لا تقولي إنني لا أحبك». لم يرسلوا الرسالة فوراً. احتفظ بها عاصم يوماً، ثم قرر أن يقرأها لأمانة بدل أن تصل إلى أمه. لم تكن الرسالة طريقاً إلى مصلحة مؤكدة؛ كانت تدريباً على أن يقول الطفل حاجته من غير أن يعتذر عنها.

بعد أسبوع، وافقت أم عاصم على لقاء قصير في غرفة جانبية. لم يكن اللقاء مصلحة مقررّة سلفاً؛ جلست أمانة قرب الباب، وتركوا لعاصم أن يبقى في مكان يستطيع الخروج منه. دخلت أمه وحدها، وأبقت حقيبتها على كتفها. قالت إنها قرأت الرسالة، وإنها لم تأت كي تطلب منه العودة. كان في صوتها ارتباك لم تستطع إخفاءه. سألتها عاصم لماذا تركته عند عمه. أجابت بأنها ظنت أن الأمر لن يبلغ هذا الحد، ثم خافت أن تواجه أخاها، ثم نجلت من أن تعترف بأنها أخطأت. لم يقل لها إنه يفهم. قال فقط إنه لا يريد أن يعود اليوم. أومأت، ولم تبك أمامه، ولم تطلب منه أن يواسيها. قبل أن ينتهي الوقت، سألتها إن كانت

تستطيع أن ترسل له خبراً عن أخته الصغيرة. وافقت، واتفقا أن تمر الرسائل عبر أمينة. خرج عاصم من الغرفة أولاً. بقيت أمه جالسةً لحظةً، ثم قامت. لم يكن في اللقاء وعدٌ بأن الأمور ستعود كما كانت؛ كان هناك خيطٌ رفيع لا يشدُّ أحدٌ طرفه بالقوة.

الفصل الثامن: غرفة الانتظار

في المركز الصحي، كانت الكراسي البلاستيكية تصدر صريراً كلما تحرك أحدٌ عليها. جلس عاصم بين سالم وأمينة، بينما انتظر ناصر في الممر، قريباً بما يكفي لسمع اسمه إذا نودي، وبعيداً بما يكفي كي لا يشعر الصبي أنه محاصر. لم يكن الفحص الطبي عقوبةً ولا دليلاً ضد أحد؛ كان طريقةً ليتأكدوا أن الجسد لم يحمل ما لم يجرؤ الطفل على قوله. قالت الطبيبة إن الكدمة سطحية، ثم طلبت أن تتحدث مع عاصم وحده. نهض سالم، لكن الطفل أمسك بطرف كفه. لم يقل شيئاً، فبقي جالساً، على مسافةٍ اختارها الصغير بنفسه.

بعد الفحص، شرحت الطبيبة لهم أن الخوف لا يظهر دائماً في صورة بكاء. قد يظهر في الصمت، أو العصبية، أو التعلق بالباب، أو في طفلٍ يعتذر قبل أن يعرف ما الخطأ. لم تسم عاصم مريضاً، ولم تمنحهم تشخيصاً يريحهم من الإصغاء إليه. قالت إن ما يحتاجه هو روتين آمن، وأشخاص لا يتغيرون فجأة، ووقتٌ لا يُستعجل فيه. أصغى سالم، وكتب الملاحظات في دفتره. أما ناصر فكان ينظر إلى الأرض، كأن كل وصفٍ يسمعه يمرّ على سنواته هو أيضاً.

حين خرجوا، سأل ناصر الطبيبة إن كان الإنسان يستطيع أن يتخلص من خوفٍ قديم. أجابت بأن الخوف ليس ثوباً يخلعه المرء، لكنه قد يتعلم ألا يتركه يقود كل

خطوة. لم تقل إن الماضي يزول، ولا إن الإرادة وحدها تكفي. قالت إن الاعتراف بما جرى، وطلب المساندة، وممارسة اختياراتٍ جديدة، قد تفتح للإنسان مساراً لم يعرفه من قبل. شكرها ناصر بارتباك. كان معتاداً أن يسمع من الناس نصائح حاسمة؛ أما هذا الجواب فترك له عملاً يؤديه، ولم يعده بمعجزة.

في الخارج، رأى سالم امرأةً تجلس قرب البوابة، تراقب عاصم من بعيد. عرفها من صورةٍ رأوها في ملف الطفل: أمه. لم تقترب. لم يندفع عاصم إليها، بل سأل أمينة من تكون. وحين عرف، بقي ثابتاً. قال سالم للأم إن عليهم أن يتركوا للصغير حق اختيار المسافة، وإن اللقاء لن يتم إلا بإشراف المختصة وموافقته. بدت المرأة على وشك الاعتراض، ثم انحنى رأسها. كانت تبكي بصمتٍ لا يطلب من أحد أن يواسيه.

في طريق العودة، قال ناصر إن بعض الآباء يجرحون أبناءهم ثم يطلبون منهم أن يعودوا سريعاً، كأن القرابة بابٌ يفتح وحده. أجابه سالم بأن صلة الدم لا تلغي حق الإنسان في الأمان. لم يكن ذلك حكماً على الأم؛ فربما كانت هي أيضاً ضحية خائفة، وربما قصّرت حين كان الصمت أسهل. لكن عاصم لا ينبغي أن يحمل ثمن عجز الكبار جميعاً. أوماً ناصر، ثم سأل إن كان يمكنه أن يحضر اللقاء المقبل. لم يعده سالم بشيء؛ قال إن الأمر يعود إلى عاصم. وأدرك ناصر أن الرغبة في المساعدة لا تمنح صاحبها حق الاقتراب.

في قاعة الانتظار، مرّ طفلٌ يبكي لأنه خائف من الإبرة. حاول أبوه أن يسحبه من ذراعه، فتدخلت الممرضة وشرحت له كيف يطمئنه بدل أن يهدده. راقب ناصر المشهد طويلاً. لم يعرف الطفل، ولم يعرف أباه، لكنه شعر بقبضة قديمة تستيقظ في كفه. أرخى أصابعه، ثم قال لسالم إن أكثر ما يخيفه أن يصير غضبه مألوفاً له حتى لا يراه. قال سالم إن العادة لا تجعل الأذى طبيعياً، وإن الإنسان يحتاج إلى من ينبهه، وإلى أن يقبل التنبيه. عندما نادوا اسم عاصم، مشى الصبي إلى الداخل وحده، ثم التفت ليتأكد أن أمينة ما زالت خلفه. كانت هناك.

في المساء، سأل ناصر سالماً عما قالتها الطيبة عن الذاكرة. أجابه سالم بأنها لم تقل إن الذاكرة عدو، بل إن الإنسان يتعلم أن يلاحظ اللحظة التي تسحبه فيها إلى الماضي. قال ناصر إنه يخشى أن يسمع في كل كلمة نبرة أبيه، وأن يردّ على الأحياء كما لو كانوا ذلك الرجل. أجابه سالم أن هذا الخوف لا يجعله مذنباً، لكنه يجعله مسؤولاً عن أن يتوقف حين يلاحظ. طلب ناصر منه أن ينبهه إذا عاد إلى الصراخ. وافق سالم، وأضاف أنه لا يستطيع أن يكون رقيب الوحيده. احتاج ناصر إلى أكثر من صديق واحد، وإلى مختصةٍ وإلى قواعدٍ يعرفها الجميع. فهم أن طلب المساعدة لا يعني تسليم حياته لشخصٍ آخر؛ يعني أن يوزع الحمل كيلا يسحق أحداً.

الفصل التاسع: حين يرفع المكسور صوته

جاء عم عاصم إلى المركز في اليوم الرابع، وطلب أن يراه. لم يأت وحده؛ كان معه رجلٌ يعرفه أهل الحيّ، يلبس قيصاً رسمياً ويتكلم بلهجة من يظن أن ثبات صوته يغني عن الدليل. قال إن المسألة شأنٌ عائلي، وإن تدخل الغرباء يزيدوها سوءاً. حاول سالم أن يشرح الإجراءات، لكن الرجل قاطعه، ثم التفت إلى عاصم الذي كان خلف باب الغرفة. قال له أن يخرج فوراً. تجدد الطفل في مكانه، وعاد صوته إلى جسده كأن الكلمات سُحبت منه.

وقف ناصر بين الرجل والباب، وقال: «لن يخرج ما دام خائفاً». كان صوته منخفضاً أول الأمر، ثم ارتفع حين مدّ الرجل يده ليزيحه. لم يضربه ناصر، لكنه أمسك معصمه بقوةٍ أربكت الجميع. في لحظةٍ قصيرة، عاد وجهه إلى تلك القسوة التي طالما احتوى بها؛ كان مستعداً أن يجعل الخوف أداةً لإيقاف الخوف. صاح سالم باسمه. ترك ناصر يد الرجل، لكنه ظلّ واقفاً كجدار. قال سالم للزائر إن أي تهديدٍ أو محاولة دخول ستُسجّل، وإن عليهم انتظار الموظفة المختصة.

خرج الرجل وهو يهدد بتقديم شكوى. وحين أغلق الباب، نظر ناصر إلى يده كأنه يراها للمرة الأولى. لم يقل إنه كان يدافع عن الطفل، ولم يجعل نيته الطيبة عذراً لقبضته. قال: «كاد الأمر يحدث من جديد». ثم ابتعد إلى الساحة. لم يلحق

به سالم فوراً. كان يعرف أن حماية عاصم لا تقتضي أن يحو ما فعله ناصر، وأن الصراخ باسم الرحمة قد يتحول إلى صراخ آخر إذا لم ينتبه صاحبه.

بعد دقائق، عاد ناصر بنفسه إلى الغرفة. اعتذر لسالم لأنه استخدم القوة، ثم طلب أن يعتذر للرجل حين تسمح الإجراءات بذلك، لا ليضمن له الزيارة، بل لأنه أخطأ في الطريقة. لم يعتذر لعاصم نياً عنه؛ سأله إن كان قد أخافه. أجاب الطفل بأنه خاف قليلاً. قال ناصر: «أنا آسف. لن ألمس أحداً كي أحميك. سأطلب المساعدة وأبقى قريباً». لم يطلب منه عاصم أن يسامحه. عاد إلى الرسم، لكنه هذه المرة وضع للبيت باباً يفتح إلى الخارج.

في الليل، أخبر سالم أمينة بما جرى. قالت إن الإنسان قد يظن أنه شفى من طبعه، ثم يكتشف أن القديم ما زال ينتظر لحظة الغضب. قال سالم إن الوعي لا يجعل المرء معصوماً، لكنه يجعله مسؤولاً عن الرجوع أسرع. وبين الفكرة والفعل، مسافة لا يقطعها المرء مرةً واحدة؛ يعبرها كل يوم، وقد يتعثر. إلا أن الاعتراف بالتعثر يختلف عن تسمية السقوط حقاً. وفي الصباح، وجد ناصر يطرق الباب قبل أن يدخل، منتظراً أن يؤذن له.

بعد مغادرة الرجل، انتبه ناصر إلى أن عاصماً لم يعد ينظر إليه. لم يقترب منه في اليوم نفسه. كتب لأمينة أنه أخاف الصبي، وطلب منها أن تسأله إن كان يريد أن

يتحدث معه بحضورها أو يفضل الابتعاد. اختار عاصم أن يؤجل الحديث. قبل ناصر ذلك، ولم يحاول أن يشرح نيته. أمضى بقية النهار في إصلاح الرفوف وحده، يسمع ضحكات الأطفال من الغرفة الأخرى ولا يدخل. في المساء، أعاد الملفك إلى مكانه، ثم كتب في دفتره: «الدفاع عن الضعيف لا يمنحني حق إخافته». لم يكن يريد أن ينسى هذه العبارة حين يشتد غضبه مرةً أخرى.

في اليوم الذي تلا الحادثة، لم يحضر ناصر إلى المركز. ترك رسالةً يقول فيها إنه يحتاج إلى الابتعاد حتى لا يتصرف من اندفاعه. لم يأخذ أحد غيابه إهانةً، لكنهم لم يتركوا الأمر دون متابعة؛ اتصلت به أمينة في الوقت المتفق عليه، وسألت إن كان آمناً. قال نعم، وإنه سيعود بعد يومين. عند عودته، لم يسأله الأطفال أين كان. أحضر عاصم له كوب ماءٍ ووضعه على الطاولة، ثم جلس على بعد مقعدين. شكره ناصر دون أن يمد يده لمسح رأسه كما اعتاد الكبار أن يفعلوا بالصغار. بقي الصبي في مكانه. كان بينهما الآن اتفاقٌ لم يكتب: القرب يُمنح، ولا يؤخذ باسم الامتنان.

في اليوم التالي، طلبت أمينة من ناصر أن يرافقها إلى غرفة التدريب، لا ليعتذر مرةً أخرى، بل ليتعلم كيف يوقف التصعيد قبل أن يصل إلى اليد. شرح المدرب أن الجسد يسبق القرار أحياناً بإشاراتٍ صغيرة، وأن الانسحاب المؤقت ليس عجزاً إذا كان هدفه منع الأذى والعودة إلى الحديث في وقتٍ آمن. لم يتعامل ناصر مع

الدرس كأنه يخص الآخرين. وصف ما أحس به حين قبض على الرجل: كيف ضاق مجال رؤيته، وكيف صار صوت عاصم أبعد من غضبه. كتب الإشارات واحدةً واحدةً، ثم اتفقوا على كلمةٍ يقولها إذا احتاج إلى أن يتوقف. اختار «استراحة». بدت الكلمة بسيطة، لكنها ستصير حاجزاً بين خوفه القديم ويدٍ قد تؤذي إنساناً حاضراً. في نهاية التدريب، لم يصفق له أحد. عاد إلى الورشة وأصلح الباب الذي ظلّ يعلق، وطلب من أمينة أن تراقب إن بدأ يرفع صوته. لم يعد يعتبر طلب الملاحظة إهانةً؛ صار يراه من أدوات العمل، مثل المفكّ الذي يساعده على إصلاح ما لا يصلحه الاعتذار وحده.

الفصل العاشر: شاهدٌ من الحيّ

لم يكن أهل الحيّ شهوداً على حادثة الساقية وحدها؛ كانوا شهوداً على أعوامٍ من الإشارات التي لم يجمعها أحد. أم خليل، التي تسكن قبالة بيت ناصر القديم، استدعت سالماً بعد أن سمعت أنه عاد. قالت إنها رأت أباه يجرّه من ذراعه أكثر من مرة، وإنها كانت تفتح نافذتها ثم تغلقها حين يلتفت الرجل. لم تبرر صمتها، لكنها قالت إن زوجها كان يهددها إذا تدخلت، وإنها خافت أن يزيد الأمر سوءاً. لم تكن شهادتها ناصعةً ولا مريحة؛ كانت شهادة إنسانيةٍ قصّرت وهي خائفة، ونجت بما استطاعت.

أخبرته أن ناصر كان يأتي إلى عتبتها في بعض الليالي، يقف دون أن يطرق، ثم يمضي. كانت تضع له قطعة خبزٍ قرب الجدار، وتخلج من نفسها لأنها لم تفتح الباب. احتفظت بدفترٍ صغير كتبت فيه التواريخ، لا لتجمع ملفاً، بل كي لا تنزع نفسها بعد سنين أن ما رآته لم يقع. كان دفترها باهتاً، وصفحاته رقيقةً كأنها ستفتت عند اللمس. شكرها سالم، ولم يقل إن ما فعلته كافٍ. قال إن بقاء أثرٍ مكتوب قد يساعد الآن، وإن الشهادة المتأخرة تظلّ نافعةً، وإن لم تستطع إعادة الزمن.

حين التقت ناصر، لم تنظر إليه طويلاً. قالت: «كان ينبغي أن أفتح لك الباب». لم يخفف عنها، ولم يعاقبها. أجاب: «كنت خائفة». قالت: «الخوف لا يحو ما حدث». فابتسم ابتسامةً باهتة: «هذا ما تعلمته متأخراً». لم يكن بينهما صلحٌ كامل؛ فالصلح لا يصنعه اعتذارٌ واحد، ولا يفرضه الندم. لكنه كان اعترافاً متبادلاً بأن كلاهما عاش محاصراً بطريقته، وأن الصمت قد يحمي صاحبه لحظةً، ثم يترك طفلاً آخر وحده عند الباب.

سألته أم خليل إن كان يكره أباه. قال إنه أمضى وقتاً طويلاً يكره الرجل، ثم وقتاً أطول يكره نفسه لأنه لا يكرهه بما يكفي، ثم تعب من قياس قلبه بمقدار الكراهية. الآن، كما قال، يذكر أباه كما كان: محسناً في أوقات، ومؤذياً في أخرى. قالت المرأة إن هذه أصعب صورةٍ للميت؛ لا ملاكاً يُقدّس ولا شيطاناً يُنسى. أجاب ناصر بأن الموت لا يختصر الحقيقة، لكنه يوقف إمكان إصلاحها، ولذلك يجب أن نتعلم ونحن أحياء كيف نسمي أفعالنا بأسمائها.

في المساء، نقل سالم دفتر أم خليل إلى ملف القضية. لم يضعه في درجٍ مغلق، ولم يقرأه أمام الأطفال. كان عليه أن يبقى حيث يراه من يحتاج إلى الدليل، لا حيث يتحول إلى حكايةٍ يتداولها الفضول. وفي الطريق، سأل ناصر إن كان سالم سيخبر الناس بما حدث. قال: «لن أفضحك، ولن أخفي الحقيقة إذا سُئلت». لم

يعجبه الجواب، لكنه هزّ رأسه. كان يكتشف أن الصدق لا يضمن له راحة فورية، لكنه يمنعه من بناء حياة كاملة على رواية ناقصة.

قبل أن يغادر سالم بيت أم خليل، أعطته كوباً من الزجاج عليه شقّ رفيع. قالت إن الكوب كان لناصر وهو صغير، وأنه كسره ذات مرة ثم خبأه كي لا يعاقبه أبوه. أصلحته هي بالغراء، لكنه ظلّ يتسرب منه الماء. احتفظت به لأنها لم تعرف ماذا تفعل به، ولأنها نجلت من أن ترمي أثراً كان يمكن أن يذكرها بوجوب فتح الباب. لم يأخذه سالم. قال إن عليها أن تسأل ناصر أولاً. وحين سألته لاحقاً، طلب أن يراه، ثم قال إنه لا يريد الاحتفاظ به؛ يمكن أن يذهب إلى المركز ويُستعمل للأقلام. وافقت أم خليل، وكأن الكوب أخيراً وجد استعمالاً لا يحتاج إلى الكتمان.

انتشرت في الحيّ حكاية أن أم خليل أخفت ما تعرفه لتحمي ناصر، وحكاية أخرى أنها فعلت ذلك خوفاً على نفسها. حين سمعت الكلام، لم ترد على الجيران. قالت لسالم إنها لا تريد أن تكون بطلةً بعد فوات الأوان. وافقها؛ فالسرد الذي يمنح الشهود المتأخرين بطولَةً نظيفة قد يسرق من الضحية حقها في الغضب. ذهبت أم خليل إلى عاصم واعتذرت له لأنها في الماضي كانت ترى أطفالاً خائفين ولا تسأل. لم يرد عليها الصبي. لم تنتظر أن يرد. اكتفت بأن قالت له إن

عليه أن يخبر أمينة إذا شعر أن وجودها يزعجه. بدت لها هذه الجملة أقل جمالاً من طلب السماح، لكنها كانت أعدل.

الفصل الحادي عشر: الأم التي كانت تجمع الشظايا

عادت أم سالم إلى الحيّ بعد أسبوعٍ من سفرها لزيارة أختها المريضة. كان الطريق قد أتعبها، فجلست عند الباب تلتقط أنفاسها، ثم رأت ناصراً في الساحة. لم تسأله كيف صار رجلاً، ولا أين ذهب طوال هذه السنين. وضعت أمامه كوب ماء، كما كانت تفعل حين كان صبيّاً يأتي راکضاً من اللعب. شربه واقفاً. قالت: «كنت أظن أن الماء يطفئ كل شيء». أجاب: «كان يطفئ العطش فقط». وللحظةٍ قصيرة، بدا الثلاثة كأنهم عادوا إلى بيتٍ قديم، قبل أن يعرفوا أن بعض الحرائق لا تُرى.

قالت الأم إنها تذكرت ليلة الساقية؛ سمعت سالماً يعود مرتجفاً، لكنه لم يخبرها بما حدث. رأت الطين على ثوبه، وفهمت أن شيئاً وقع، لكنها لم تضغط عليه. قالت لنفسها إنه طفلٌ خائف، وإن أباه يكفيه ما هو فيه. لم تكن تملك جواباً آنذاك، وربما كان الصمت يحميه من عقابٍ آخر، لكنه ترك ناصراً في الجهة الأخرى من الحكاية. قال سالم إنه لم يلومها. فأجابته: «عدم لومك لا يجعلني لم أكن أستطيع أن أفعل أكثر». كانت تجمع الشظايا، لكنها لم تدّع يوماً أنها أصلحت الإناء كله.

سأل ناصر أم سالم إن كانت تكرهه لأنه صار يشبه أباه في بعض الأيام. قالت إنها لا تعرفه بما يكفي لتكرهه أو تحم عليه، لكنها تعرف أن أمه كانت تحبه وهو

صغير، وأن الحب لا يضمن للطفل أن يكبر سليماً. ثم قالت: «لا تجعل أمك عذراً لما فعلت، ولا تجعلها سجيناً يمنعك من أن تتغير». أحنى رأسه. في ذلك المجلس، لم تُمنح البراءة لأحد، ولم يُطرد أحد. كان لكل واحدٍ منهم نصيبه من الحكاية، وحقه في أن يرويها بلسانه.

بعد أن خرج ناصر، قالت الأم لسالم إن قلبه يبدو متعباً أكثر من قبل. ضحك وقال إنه لم يكن خفيفاً من قبل. ثم جلس عند قدميها كما كان يفعل صغيراً، ووضع رأسه في حجرها. لم يكن قد فعل ذلك منذ وفاة أبيه. مسحت شعره وقالت إن الابن قد يكبر، لكن حاجته إلى أن يستريح عند أمه لا تتحول إلى ضعف. شعر أن شيئاً داخله لان، لا لأن الماضي صار جميلاً، بل لأن الحنان لا يطلب من الألم أن يختفي كي يقترب منه.

قبل النوم، أخرج من خزانة أمه مصباحاً قديماً كانت قد أصلحته له بعد انكساره. لم يعد يعمل، لكن الزجاج بقي في مكانه. وضعه على الطاولة بينهما. قالت إنه احتفظ به طويلاً. أجاب: «لأنه كان أول شيء كسرتَه ولم أكرهه». ابتسمت أمه، ثم قالت: «الشيء المكسور لا يعود كما كان، لكنه قد يضيء إن وجد من يصلحه». لم يكتب العبارة. تركها في الغرفة، حيث كانت الكلمات أحياناً أجمل حين لا تُحاصر بالخبر.

في اليوم الذي تلا حديثهم، أخرجت أم سالم من صندوقها رسائل قديمة لم ترسلها لأختها. قرأت واحدةً بصوتٍ عالٍ، ثم توقفت عند جملةٍ كتبتها بعد ليلة المصباح: «أخاف أن أربيه على الصبر حتى يظن أن الصبر قبولٌ بكل شيء». ظلت الورقة في يدها. قال سالم إن صبره لم يكن كله فضيلة؛ بعضه كان خوفاً من أن يخسر القليل الذي لديه. أجابته أمه بأن الصبر إذا حفظ للإنسان قلبه كان نوراً، وإذا منعه من طلب حقه صار قيداً. لم تتبادلا اعتذاراً مرتباً. جلستا فقط قرب النافذة، وبينهما ماضٍ لا يمكن تغييره، وحاضرٌ فيه ما يكفي من الحنان ليُقال أخيراً.

بدأت أم سالم تأتي إلى بيت النهار كل خميس، لا لتجلس بين الأطفال، بل لتساعد في إصلاح الثياب التي تمزقت في اللعب. كانت تضع صندوق الخياطة قرب النافذة، وتترك للصغار أن يطلبوا منها ما يحتاجون إليه. لم تسأل أحداً عن أسرته. ذات مرةٍ جلس عاصم قربها، يراقب الإبرة وهي تدخل القماش وتخرج. قال إنه لا يحب أن يصلح الناس الأشياء دون أن يسألوها إن كانت تريد إصلاحاً. ضحكت الأم وقالت إنه محق، وأن الثوب لا يستطيع الاعتراض، أما الناس فيستطيعون. سألته إن كان يريد أن تخطط زراً انفك من قيصه. فكر قليلاً ثم أعطاها القميص. كان في هذا الإذن الصغير حناناً لا يتجاوز حدوده.

الفصل الثاني عشر: ليلة الباب المفتوح

هبت عاصفةٌ في آخر الأسبوع، فتعطلت الكهرباء وانغلق الطريق المؤدي إلى المركز بالماء. كان الأطفال قد ناموا مبكرًا، إلا عاصمًا الذي بقي قرب الباب، يصغي إلى صوت المطر كأنه يسمع خطواتٍ تقترب. لم يقل إنه خائف. أخذ يفتش عن حذائه، ثم عن سترته، ثم عاد إلى الفراش. فهمت أمينة أنه يريد أن يعرف أن بإمكانه الخروج إذا أراد. قالت له إن الباب سيظل مفتوحًا من الداخل، وإن أحدًا لن يجبره على البقاء في غرفةٍ تضيق عليه. لم تهوّن من المطر، ولم تعده بأن شيئًا لن يحدث؛ اكتفت بأن جلست قربه.

في منتصف الليل، دوى طرقٌ مضطرب على الباب. كانت أم عاصم واقفةً في الخارج، مبللةً، وإلى جانبها طفلة صغيرة تحمل كيسًا بلاستيكيًا. لم تطلب أن تدخل فوراً؛ قالت إن أخاها هدّدها بعدما اعترضت على ضرب عاصم. أخبرتها أمينة أن المركز ليس مكانًا للاختباء الدائم، لكنه يستطيع استقبالها حتى يصل الدعم. فتح ناصر الباب نصف فتحة، ثم تراجع ليترك لها مساحةً تختار منها الدخول. لم يمدّ يده إليها، ولم يسألها لماذا تأخرت. كانت يداها ترتجفان، فناولها منشفةً ووضع كوب ماءً على الكرسي.

أراد عاصم أن يذهب إلى أمه، لكنه بقي عند حافة الغرفة. لم تطلب منه أن يساعدها أو أن يقترب. قالت له إنها أخطأت حين ظنت أن السكوت سيحميه، وإنها خافت من أخيها ومن كلام الناس، لكنها لا تريد أن يبقى الخوف سيد البيت. لم تقل إنها ستفعل كل شيء على نحوٍ صحيح؛ قالت إنها ستذهب مع الموظفة في الصباح، وإنها ستقبل أن يتخذ عاصم الوقت الذي يحتاج إليه. كان الاعتراف صغيراً، لكنه لم يضع على الطفل عبء أن يواسيها.

حين سُمعت ضربةٌ على الباب الخارجي، وقف ناصر في مكانه. عاد إليه اندفاعه القديم، لكن هذه المرة لم يتحرك وحده. نادى سالماً، ثم اتصل بالجهة المسؤولة، وبقي عند المدخل حتى وصل من يساعدهم. لم يكن المشهد بطولاً؛ كان مجموعة أشخاصٍ خائفين يضعون الخوف في موضعه، فلا يتركونه يتخذ القرار عنهم. عندما انصرف الطارق، ظلَّ ناصر واقفاً قليلاً، ثم جلس على الأرض، وراح يتنفس ببطء. لم يسأله أحد أن يكون قوياً. كان كافياً أن يبقى حاضراً.

قرب الفجر، هدأ المطر. نامت أم عاصم في غرفةٍ منفصلة، وأصرَّ الصغير على أن يبقى بابها مفتوحاً. جلس سالم في الممرِّ مع ناصر، وبينهما مصباح يدويٌّ ضعيف. قال ناصر إنه كان يظن أن النجاة تعني أن يصبح المرء أقوى من الجميع، ثم اكتشف أن القوة التي لا تسمح للآخرين بالاقتراب تتحول إلى جدارٍ يسجن

صاحبها. لم يجادله سالم. في الخارج، أخذت المياه تنحسر عن الطريق ببطء. لم يكن الصباح قد وصل بعد، لكن الظلام لم يعد يملك الغرفة كلها.

مع انقشاع الليل، كان ناصر لا يزال مستيقظاً. غفا لحظات ثم انتفض حين تحركت الريح في الباب. لم يخف الأمر عن أمينة. أخبرها أنه يحتاج إلى أن يقف في الساحة قليلاً. خرج، ووضع قدميه على الأرض الرطبة، وعدّ أنفاسه كما تعلم في الجلسات. لم يحاول أن يطرد ذكرى أبيه؛ سمح لها أن تمر من غير أن تتحول إلى أمرٍ يطيعه. رأى نافذة غرفة الأطفال تضيء، فاطمأن إلى أن عاصماً نائم. عاد إلى الداخل ولم يتفقدده. في الصباح، أخبره أنه كان خائفاً ليلاً. قال الصبي: «أنا أيضاً». لم يعد أحدهما الآخر بشجاعةٍ دائمة؛ اكتفيا بأنهما بقيا.

في اليوم التالي للعاصفة، وجدوا على عتبة المركز حذاءً صغيراً مبتلاً، لم يعرف أحد لمن يعود. لم يرمه ناصر، ولم يعلقه على الجدار. وضعه في صندوق المفقودات وكتب تاريخ العثور عليه. قال سالم إن هذه التفاصيل تمنع الحكايات من أن تتحول إلى ظنون. رد ناصر بأن الذاكرة تحب أن تملأ الفراغات بما يخفيها. عند الظهيرة، جاءت طفلةٌ تبحث عن الحذاء. أعاده إليها ناصر وسأل إن كانت تريد مساعدةً في ربطه. قالت لا، وربطته بنفسها. ابتعد خطوةً وتركها تنهي العقدة. لم تكن لحظة ذات مغزى عندها، لكنها كانت تدريباً له على أن يرى الحاجة دون أن يستولي عليها.

الفصل الثالث عشر: اعتذار لا يطلب الغفران

انتظر سالم ناصراً بعد إغلاق المركز، لكنه لم يرسل إليه دعوةً صريحة. ترك الباب موارباً، ووضع إبريق الشاي على الموقد. جاء ناصر قبل أن يبرد الماء، وجلس في المكان نفسه الذي جلس فيه أول مرة. لم يبدأ بالكلام عن الساقية؛ قال ناصر إنه تذكر أياماً أخرى، كان فيها سالم قريباً منه ثم صار نجاةً بعيداً. لم يكن يريد أن يجمع كل ماضيه في تهمةٍ واحدة، لكنه تعب من أن يختار الناس له الجزء الذي يناسبهم: مرةً يتذكرونه ضحية، ومرةً يتذكرونه مؤذياً، ونادراً ما يتذكرونه إنساناً يحاول أن يفهم كيف صار الاثنين.

قال سالم إنه لم يكن يعرف كيف يقترب من ناصر بعد تلك الليلة. وحين حاول أن يزوره بعد أسابيع، ردّه أبوه عند الباب، فقبل سالم المنع كأنه أمرٌ لا يملك تغييره. ثم جاءت أعوام المدرسة والعمل، وتراكت المسافة حتى صار الرجوع أثقل من البقاء بعيداً. لم يقل ذلك ليطلب العذر. قال إنه اكتشف أن التفسير حين يُقدّم في موضع الاعتذار يتحول إلى دفاع. أما الاعتذار، كما فهمه الآن، فيبدأ بأن يسمي المرء ما فعله، ثم يترك للمتأذي حرية أن يراه كما يشاء.

قال ناصر: «أنت تركتني هناك». قال سالم: «نعم». «وخفت من أبيك أكثر مما خفت عليّ». قال: «نعم». ظلّ ناصر ينظر إليه، كأنه ينتظر أن يتراجع أو يخفف

العبارة. لم يفعل سالم. لم يطلب منه أن يتفهم طفولته ولا أن يوازن بين ما وقع لهما. قال فقط: «آسف لأنني تركتك وحدك، وآسف لأنني احتجت كل هذه السنين لأقولها». وضع كفيه على الطاولة. كان الاعتذار بلا زخرفة، ولهذا بدا أثقل من الكلمات الجميلة.

لم يسامحه ناصر. ولم يعلن أنه لن يسامحه. قال إن الجملة وصلت، وإنه لا يعرف ماذا يفعل بها. أجابه سالم بأنه لا يحتاج إلى فعل شيء الآن. خفّ التوتر في كتفي ناصر، لا لأن الأمر انتهى، بل لأن أحداً لم يطالبه بخاتمة سريعة. خرج بعد ذلك، وتوقف عند الباب لحظة. قال: «أظن أنني كنت أنتظر اعتذارك، وأخشى أن أحتاجه». قال سالم: «لا تجعل حاجتك إليه ديناً عليك». أوماً ناصر ومضى. بقي كوب الشاي على الطاولة، نصفه بارد ونصفه لم يُمسّ، مثل مصالحة لم تحدث بعد، لكنها لم تعد مستحيلة.

في طريقه إلى البيت، استعاد ناصر الجملة التي لم يقلها: «لكنني كنت طفلاً». كانت حقيقية، وكان يحق له أن يتذكرها، لكنه أدرك أن وضعها عقب الاعتذار سيجعلها كأنها شرط على سالم كي يلين. عاد إلى المركز وأخبره أنه لم يرد أن يدافع عن نفسه. قال سالم إنه لا يريد منه أن ينكر طفولته، بل أن يترك لها مكانها من غير أن يدعها تتكلم نيابةً عنه الآن. لم يصلحها بعضهما في تلك اللحظة. اتفقا على أن

يتناولوا الغداء مع أمينة في الأسبوع المقبل، وأن يلغيا اللقاء إذا لم يرغب أحدهما. كانت دعوةً بسيطة، قابلةً للرفض، وهذا ما جعلها أصدق من وعدٍ كبير.

في الأسبوع الذي تلا اعتذار سالم، لم يتحدثا عن الساقية. عملاً معاً في ترتيب المكتبة، وكنا يختلفان على مكان الكتب. اختار ناصر أن يضع القصص قرب المقاعد، بينما أراد سالم أن تكون في الرف الأعلى كي لا تتلف. اقترحت أمينة أن يتركا بعضها في متناول الأطفال وبعضها محفوظاً، فانهى الخلاف بلا فائز. لاحظ سالم أن ناصر كان يتراجع عن رأيه أحياناً، لكنه لم يمدحه في كل مرة. لم يكن يريد أن يجعل التراجع إنجازاً استثنائياً؛ أراد أن يصير جزءاً من الحياة العادية. في نهاية النهار، قال ناصر إنهما ربما لم يكونا صديقين الآن، لكنهما لم يعودا غريبين. قال سالم إن هذه بدايةً تكفي.

الفصل الرابع عشر: فتى خلف النافذة

كان في البيت المقابل للمركز فتى اسمه رامي، يراقب الساحة من خلف ستارة خضراء. لم يأت يوماً، لكنه عرف مواعيد الأطفال، وميز أصواتهم من وقع الأقدام. لاحظته أمينة أول مرة حين رمى كرةً من النافذة إلى الساحة، ثم تراجع قبل أن يخرج. أعاد سالم الكرة إليه، ووضع معها ورقةً صغيرة كتب عليها: «إذا أردت أن تلعب، فالمكان لك. وإذا لم ترد، فالكرة لك أيضاً». لم يطرق بابه، ولم يسأل الجيران عن قصته. كان يترك نافذةً من الاحتمال مفتوحة، لا نافذةً على حياةٍ لم يأذن له أحد بدخولها.

في اليوم التالي، اختفت الورقة. بعد أسبوع، وجدوا الكرة قرب الباب من الداخل. ثم في مساءٍ مطر، وقف رامي عند العتبة، وقد لفّ ذراعه بكمّ سترةٍ كبيرة. لم يدخل. قالت أمينة إن اسمه يكفي، وإنه يستطيع أن يجلس دقيقةً أو يمضي. بقي واقفاً، ثم نظر إلى سالم وسأله: «هل يجبرونك على الكلام هنا؟». قال سالم: «لا. لكننا لا نترك أحداً وحده إذا طلب المساعدة». هزّ الفتى رأسه، كأنه يقيس الفرق بين الوعد والتهديد. دخل خطوتين، ثم جلس قرب الباب، محتفظاً بحقه في رؤية المخرج.

لم يكن رامى يشبه عاصم، ولا ناصر، ولا سالم. كانت قصته تبدأ من أم مريضة وأب غائب، ومن أُنْج أكبر ظن أن القسوة طريقة لإدارة البيت. قال إنه لا يريد أن «يُبلِّغ» على أخيه، لكنه يريد أن ينام دون أن يستيقظ على شجار. لم يحاول سالم أن يحل الأمر بحكمة. سأل الفتى عما يجعله يشعر بالأمان، ومن الشخص البالغ الذي يثق به، وهل توجد حاجة طبية عاجلة. واففقوا على أن يحضر خاله في اليوم التالي، وأن يساعد المركز في طلب مشورة مختصة. لم يكن الحل كاملاً، لكنه صار خطة لها أسماء وأوقات وخطوات.

كان ناصر يستمع من بعيد. حين خرج رامى، قال له إن الباب سيظل مفتوحاً، لكن لا أحد سيجرّه إلى الداخل. ردّ الصبي: «أنا أعرف». ابتسم ناصر، ثم التفت إلى سالم وقال إن شيئاً في هذا المكان يزعجه. سأله سالم ما هو. أجاب: «أن الصغار هنا يستطيعون قول لا». أدرك سالم أن العبارة ليست انتقاداً. كان ناصر يكتشف، متأخراً، شكل السلطة حين لا تُستخدم لإخضاع أحد. وفي تلك الليلة، لم يرَ الفتى خلف النافذة. بقيت الستارة مسدلة، لكن الكرة كانت في الساحة.

بعد أيام، أعاد رامى الكرة إلى الساحة، لكنه خرج معها هذه المرة. وقف عند انعطاف الفاصل بين الرصيف والبوابة، وانتظر أن يراه أحد. لم يصفقوا له ولم ينادوه. رفعت أمينة يدها تحيةً، ثم واصلت ترتيب الكتب. دخل رامى بعد دقائق وجلس على حافة الدرج. أخرج من جيبه قصاصةً عليها رسمٌ للبيت الذي يعيش فيه، وفي

النافذة خطُّ أسود كثيف. قال إنه لا يريد أن يرسم البيت من الداخل. قالت أُمينة إن بإمكانه أن يرسم شيئاً آخر. بدأ يرسم شجرةً لا يعرف اسمها، وترك النافذة خارج الورقة. لم يكن هذا هروباً من الحقيقة؛ كان استراحةً منها.

ذات يومٍ، لم يأتِ رامي إلى بيت النهار. لم يرسل أحدٌ في طلبه، ولم يفتشوا عن سبب غيابه. في العصر، وجد سالم ورقةً تحت الباب عليها شجرةٌ بلا جذور، وفوقها نافذةٌ صغيرة. لم يعرفوا إن كان رامي قد رسمها، لكن أُمينة وضعتها على الطاولة دون تعليق. في الأسبوع التالي، عاد الفتى بنفسه، ورأى الورقة. قال إنها له، لكنه لا يريد أن يشرحها. أعادتها إليه أُمينة. طواها ووضعها في جيبه. لم يحاول ناصر أن يفسر الرسم بوصفه استعارةً عن حياته. صار يعرف أن بعض الصور ملكٌ لمن رسمها، وأن تأويلها من غير إذنه قد يكون شكلاً آخر من الاقتراب القسري.

الفصل الخامس عشر: الطريق إلى المخفر

في الصباح، ذهب سالم وناصر وأمينة مع الموظفة المختصة إلى المخفر لتسجيل إفادة بشأن ما وقع لعاصم. لم تكن الرحلة إلى المكان خطوة سهلة؛ فالناس يعرفون أن أبواب العدالة قد تفتح طريقاً للحماية، وقد تفتح باباً جديداً للتهديد. حملت أمينة نسخة من الرسالة، ودقتر أم خليل، وورقة الطبيب. أما عاصم فلم يأت. كان له الحق أن يُستمع إليه بطريقة آمنة، لا أن يُعرض على مكاتب الكبار كلما احتاجوا إلى إثبات جديد.

سألهم الضابط إن كانوا يريدون «حل المشكلة عائلياً». ردّت الموظفة بأن حماية الطفل ليست نزاعاً بين رجلين، وأن المطلوب توثيق الوقائع واتباع الإجراءات. لم ترفع صوتها، لكنها لم تسمح للعبارة أن تصير ستاراً. رأى سالم وجه ناصر يتصلب عند كلمة «عائلياً»، فأشار إليه أن يترك لها الكلام. لم يكن الصمت تراجعاً هذه المرة؛ كان احتراماً لمن تملك الصفة والمعرفة، وبذلك تجنب ناصر أن يحوّل غضبه إلى واجهة تعطل القضية.

حين سُئل سالم عن الساقية، قال إنه يتذكر أنه كان حاضراً، وإنه غادر المكان قبل أن يتأكد مما جرى. لم يضيف أنه كان صغيراً إلا حين طُلب منه تحديد عمره؛ لم يجعل سنّه حجةً لإسقاط أثر شهادته، ولا بالغ في لوم نفسه ليببدو صادقاً. قال ما

يعرفه، وما لا يعرفه تركه واضحاً. أما ناصر، فقدم إفادته عن زيارته الأخيرة للبيت ومحاولة العم انتزاع الطفل. كانت يده ترتجف تحت الطاولة، لكنه تابع الكلام. اكتشف أن الشهادة لا تشترط أن يكون الصوت ثابتاً، يكفي ألا يبدل صاحبه الحقيقة كي ينجو من ارتجافه.

خرجوا بعد الظهر، وقد تسلموا رقماً للمتابعة وموعداً لمقابلة الباحثة الاجتماعية. لم يكن ذلك نصراً، لكنه كان بداية طريقٍ رسمي لا يستطيع العم أن يحوه بهديدٍ عابر. عند البوابة، قال ناصر إنه كان يكره المخافر منذ طفولته. لم يسأله سالم لماذا. قال ناصر إن أباه كان يقوده إليها مرةً بعد شجارٍ في البيت، ثم يخرج به قبل أن يُسجل شيء، كأن مجرد زيارة المكان تكفي لإخافة الصبي. أجابه سالم: «اليوم جئت لتقول ما حدث، لا لتخاف منه». لم يرد ناصر، لكنه وضع الورقة ذات الرقم في جيبه كما لو أنها دليلٌ على أنه فعل شيئاً مختلفاً.

حين عادوا إلى الحيّ، كان بعض الناس قد سمعوا أنهم ذهبوا إلى المخفر، وبدأت النظرات تسبق الأسئلة. حاول أحد الجيران أن يستدرج عاصماً إلى حكاية ما جرى. أوقفته أمينة وقالت إن تفاصيل الطفل ليست مادةً للحديث. لم تكن الحماية سريةً مطلقة؛ فالمؤسسات تحتاج إلى معرفة ما حدث، لكن الفضول لا يملك هذا الحق. في المساء، شكرها سالم. قالت إنها كانت قد أخطأت قديماً حين ظنت أن

السكوت دائماً ستر. الآن فهمت أن الستر قد يحجب إنساناً، وقد يحجب المؤذي من المسألة؛ والفرق بينهما ليس في النية وحدها، بل فيمن يدفع الثمن.

بعد أسابيع، تلقوا اتصالاً من الباحثة الاجتماعية يفيد بأن القضية ستُراجع في جلسة رسمية. لم يفرح سالم، ولم يخشَ كما كان يخشى في البداية. راجعوا الأوراق، وتأكدوا من أن عاصماً يعرف ما سيحدث ومن سيكون حاضراً. اختار الصبي أن تذهب أمينة معه، وأن يبقى سالم خارج القاعة. لم يعترض. كان يريد أن يشهد بنفسه، لكن حقه في الاطمئنان لا يسبق حق الطفل في اختيار من يرافقه. وقبل أن يدخل عاصم، قال له ناصر إن بإمكانه التوقف إذا تعب. أجاب الصغير بأنه يعرف. أوماً ناصر، ثم تركه يمضي دون أن يربت على كتفه.

في الجلسة الرسمية، حضر العم ومحامٍ من طرفه. بدا الرجل أقل ضجاً مما كان عند الباب، لكنه ظلّ يكرر أن العائلة تعرف مصلحة الطفل. شرحت الباحثة الاجتماعية أن عاصماً لن يُجبر على العودة قبل تقييم الوضع، وأن حضوره ليس اعترافاً ضد أحد ولا فرصة للضغط عليه. استمع سالم من الخارج؛ لم يدخل لأن عاصماً لم يطلبه. بعد الجلسة، خرجت أمينة أولاً ثم الصبي. لم يسألهم ناصر عما قاله كل طرف. انتظر حتى قال عاصم بنفسه إنه خاف حين رفع عمه صوته، وأنه استطاع أن يطلب استراحة. كانت هذه أول مرة يسمع فيها الكبار الطفل يتحدث عن حقه لا عن خوفه وحده. العم لم يبدُ مقتنعاً، ولم يعتذر. لكن القرار المؤقت

أبقى عاصماً في مكانٍ آمن، وفرض على البالغين متابعةً واضحةً. في طريق العودة، قال الصبي إنه لا يعرف ما سيحدث بعد ذلك. أجابته أمينة بأنهم سيخبرونه بكل خطوةٍ حين يعرفونها، ولن يختلفوا يقيناً لهدئوه. بدا هذا الوعد متواضعاً، لكنه كان شيئاً يمكن الوفاء به.

الفصل السادس عشر: الاسم القديم

في دكان أبي رفيق، ناداه رجلٌ من آخر الممرِّ بلقبه القديم: «يا هزّاع». كان الاسم قد التصق به في المدرسة، يوم كان يتقدم الآخرين إلى العراك ثم ينكر خوفه. لم يكن اسمه الحقيقي، لكنه عاش معه سنوات، حتى صار اللقب قناعاً يتوقعه الناس منه. التفت ناصر. كان الرجل زميلاً قديماً، وقد لمح في ابتسامته استعداداً لإعادة الماضي إلى صورته المألوفة: الصبي المشاغب الذي لا يعتذر، والرجل الذي لا ينكسر. قال ناصر: «نادني ناصر». ضحك الرجل، فكررها بجديّة لم يعرفها عنه من قبل.

سأله زميله إن كان قد صار «واعظاً» بعد عودته. ردّ ناصر بأنه لم يعد ليتعلّم أحداً، بل ليتعلّم كيف لا يكرر كل ما تعلمه خطأً. لم يبدُ الجواب مقنعاً للرجل؛ فالناس تفضل الحكايات ذات الأفتحة الثابتة، لأنها تعفيهم من ملاحقة التحول البطيء. قال له زميله إن بعض الرجال لا يتغيرون، وإن من آذاهم لا بد أن يؤذوا غيرهم. أحسّ ناصر بالغضب يصعد إلى حلقه، لكنه لاحظ أن يديه انقبضتا. فتحهما ووضعهما على حافة الدكان. لم يكن امتناعه عن الردّ استسلاماً؛ كان أول مرة لا يسمح فيها للقبِّ القديم أن يختار له صوته.

بعد ذلك، دخل إلى المركز وكتب اسمه على ورقة تطوع. طلب منه سالم أن يقرأ التعليمات كاملةً، وأن يوقع على التزام يمنع أي احتكاك منفرد بالأطفال إلى أن ينتهي التدريب. قرأها ناصر من غير اعتراض، ثم سأل عن مدة التدريب. قال سالم إنها شهرٌ قابل للمراجعة، وإن القرار ليس عقاباً له بل حمايةً للجميع. ملح ناصر في نفسه رغبةً قديمةً في أن يأخذ الأمر إهانةً ويغادر. لكنه عرف أن طلب الثقة لا يمنحه حقها، وأن الإصلاح يبدأ حين يقبل المرء حدوداً لا يضعها هو وحده.

في المساء، عاد إلى بيت أبيه المهجور. وجد على الباب لوحةً صغيرة كتب عليها اسمه القديم بقلم أزرق، ربما وضعها أحد أبناء الحيّ مازحاً. نزع اللوحة ووضعها داخل درج. لم يحطمها؛ لم يعد يحتاج إلى تدمير كل أثرٍ كي يثبت أنه تجاوزه. جلس في الغرفة التي كان ينام فيها، وسمع الريح تمرّ من شقوق النافذة. قال بصوتٍ خافت: «أنا ناصر». لم يكن إعلاناً أمام أحد. كان تجربةً للاسم حين لا يسبقه خوفٌ ولا يلاحقه لقب.

في الأسبوع التالي، عاد زميل ناصر القديم إلى الدكان. لم يناده بلقبه هذه المرة. قال إنه سمع بما فعله في الاجتماع، وإنه لا يعرف إن كان يصدقه. أجابه ناصر بأنه لا يطلب منه أن يصدقه من كلامٍ واحد. عرض عليه أن يأتي إلى بيت النهار ليرى العمل، لا ليشهد له. قال الرجل إنه سيأتي حين تسمح له ظروفه. لم يمد ناصر يده للمصافحة، ولم يفسر تردده على أنه إهانة. أدرك أن التغيير لا يُقاس بعدد

من يصفقون له، بل بقدرته على الاستمرار حين لا يصفق أحد. وفي طريقه إلى البيت، كرر اسمه الحقيقي في سره، لا كأنه يحو القلب، بل كأنه يضيف إلى نفسه مساحةً أوسع.

في ليلة متأخرة، فتح ناصر الدرج الذي وضع فيه لوحة لقبه المدرسي. لم يخرجها ليحرقها، بل قرأ ما كتبه زميلٌ عليها قديماً: «لا يخاف». تذكر أنه كان يرتجف وقتها، لكنه تعلّم أن يخفي ارتجافه خلف ضحكٍ عالٍ. قصّ الورقة من اللوحة، وترك الخشب في الدرج. أحرق الورقة في صحنٍ معدنيٍّ خارج البيت، ثم شعر بالندم؛ لم يكن يريد أن يحو أثر الصبي الذي كانه، بل أن يحرره من الأمر الذي فُرض عليه. في الصباح، صنع من الخشب حاملاً للمفاتيح، وعلقه في بيت النهار. ترك عليه خدشاً واضحاً. لم يعد يخجل من أن الأشياء تحمل آثار استعمالها.

الفصل السابع عشر: ما قاله الطبيب

ذهب ناصر إلى الطيبة التي قابلها في المركز، هذه المرة وحده. لم يطلب تشخيصاً يفسر حياته كلها، بل قال إنه يغضب أسرع مما يريد، وأنه لا يثق بالهدوء لأنه يتوقع أن يتبعه انفجار. استمعت إليه، ثم سألته عن نومه وعن الأشياء التي تثير خوفه، وعن الأشخاص الذين يستطيع أن يتصل بهم حين يشعر أنه سيفقد السيطرة. لم تقل له إن ماضيه يحكمه، ولم تقل إن عزيمته كافية. اقترحت أن يبدأ لقاءات منتظمة، وأن يضع خطة واضحة للانسحاب الآمن إذا اشتد غضبه، وأن يتعلم ملاحظة جسده قبل أن يتحول التوتر إلى فعل.

خرج من العيادة ومعه ورقة مواعيد، وشعور غريب بأنه اعترف بحاجة لا يقدر على إصلاحها وحده. لم يكن يرى طلب المساعدة بطولاً، لكنه لم يعد يراه عاراً. تذكر أباه؛ كم كان ذلك الرجل يتجنب الطبيب حتى حين يشتد عليه الألم، كأن الاعتراف بالمرض سيجعله أقل رجلاً. فهم ناصر أن بعض ما ورثه ليس طباعاً في الدم، بل أفكار تنتقل في البيوت بلا أسماء. ويمكن للإنسان أن يوقف انتقالها حين يجروء على قول: لا أعرف كيف أتعامل مع هذا وحدي.

حين حكى لسالم عن الموعد، لم يقل له سالم إنه نفور به، لئلا يحول خطوة عادية إلى امتحان جديد. قال فقط إن المركز سيعدل جدول العمل حتى يستطيع

الذهاب. أصرّ ناصر أن يفعل ذلك بنفسه، وأن يخبر أمينة لا أن يطلب من سالم أن يتوسط عنه. كانت خطوة صغيرة نحو تحمل مسؤوليته. قال سالم إن معالجة النفس لا تقو ما فعله المرء بالآخرين، لكنها قد تمنعه من فعله مرةً أخرى. وافقه ناصر: «لا أريد أن أخرج من الجلسة معتذراً لنفسي، ثم أعود لأؤذي غيري».

في طريق عودته، اشترى خبزاً من الخبز الذي كان يسخر منه. ناول البائع ثمنه، ثم تذكر أنه نسي أن يطلب الكمية التي يحتاجها المركز. عاد إلى الدكان. لم تكن العودة حدثاً عظيماً، لكنها كانت تمريناً على ألا يهرب حين يكتشف خطأً بسيطاً. عند الباب، صادف عاصماً مع أمينة. أعطاه الصبي كيس الخبز كي يحمله، ثم سار إلى جانبه من غير أن يختبئ. لم يفسر ناصر ذلك على أنه ثقةٌ كاملة؛ فهم أن الثقة تنمو مثل نباتٍ ضعيف، وأنه لا ينبغي له أن يمدّ يده ليتحقق منها كل لحظة.

في موعده الثالث، سألت الطيبة ناصر عما فعله حين غضب في المركز. حكى لها عن قبضته، وعن تراجع، وعن خوفه من أن يخلط بين الحماية والسيطرة. لم تمدحه على التراجع، ولم توبخه على الانفعال. سألتها عما لاحظته قبل أن يرفع يده: شدّ الفك، حرارة الوجه، وتسارع النفس. كتبت هذه العلامات في هاتفه، ووضع معها خطواتٍ عملية: يتبعد، يطلب شخصاً آخر، ولا يعود إلى النقاش حتى يهدأ. لم يكن ذلك ضماناً، بل خريطة. وحين خرج، شعر أن الخريطة لا تختار الطريق عنه، لكنها تساعد على ألا يسمى الضياع قدراً.

في إحدى الجلسات، سأل ناصر الطيبيّة إن كان عليه أن يروي كل ما جرى كي يتغير. قالت إن القرار يعود إليه، وإن الكلام ليس سابقاً ولا شرطاً لإثبات صدقه. قد يحتاج إلى أن يروي بعض الذكريات، وقد يحتاج إلى التوقف حين يشتد عليه الأمر. لم تمنحه وصفاً واحدةً للجميع؛ سأله عما يساعده على العودة إلى الحاضر: رائحة القهوة، المشي، أو سماع صوتٍ مألوف. اختار المشي، لكنه قال إن رائحة الخبز تعيده أحياناً إلى البيت القديم. دون ذلك في هاتفه. لم يخرج من العيادة خفيفاً، لكنه خرج ومعه خياراتٌ بدل حكمٍ واحد على نفسه.

ذات مساءً، بعد جلسةٍ طويلة، خرج ناصر يمشي في الشارع الذي كان يسلكه صغيراً. مرّ أمام مقهىٍ قديم، فسمع رجلين يتجادلان، وشعر بكتفيه يرتفعان. بدل أن يواصل الطريق مسرعاً، وقف عند واجهة متجرٍ مضاءة، وسمّى الأشياء التي يراها: زجاج، مصباح، قيص أبيض، دراجة. ثم اتصل بأمنية وأخبرها أنه يحتاج إلى أن يتحدث مع أحد. لم تكن مكلمةً عاجلةً ولا انهيأراً؛ كانت اختياراً مبكراً قبل أن يتلعب التوتر صوته. سأله إن كان آمناً، فأجابها، ثم بقيا على الخط دقائق. لم تقل له إن كل شيء بخير، لأنها لا تعرف. سأله عما يريد فعله الآن، فقال إنه يريد العودة إلى بيته دون المرور بالمقهى. اقترحت طريقاً آخر، ومشى فيه. في الجلسة التالية، حكى للطبيبة ما جرى. قالت له إن ملاحظة الحاضر لا تحو ما حدث، لكنها تعطيه وقتاً يختار فيه استجابته. للمرة الأولى، لم يسمع في عبارة

«اختر» اتهاماً بأن كل ما وقع كان بيده. سمع فيها مساحةً صغيرةً لما يمكن فعله
من الآن.

الفصل الثامن عشر: محاكمة الذاكرة

اجتمع أهل الحيّ في قاعة المدرسة القديمة لمناقشة ما جرى في المركز، بعد أن انتشرت شائعة تقول إن سالماً يريد أخذ الأطفال من أسرهم. لم يكن الاجتماع محكمةً قانونية، لكنه صار محكمةً للذاكرة: كل شخصٍ جاء يحمل نسخةً من الماضي تصلح لتبرئته أو اتهام غيره. وقف رجلٌ وقال إن التربية لا تكون إلا بالحزم، وردت امرأةٌ بأن الحزم لا يعني الإذلال. أخذت الأصوات تتداخل حتى صار الناس يتكلمون عن أنفسهم وهم يظنون أنهم يتكلمون عن عاصم.

لم يطلب سالم الكلمة في البداية. استمع إلى أم خليل وهي تقرّ بأنها رأت أشياء وسكتت، وإلى أم عاصم وهي تقول إنها خافت ولم تعرف كيف تطلب المساعدة، وإلى رجلٍ اعترف بأنه ضرب ابنه لأنه تعلّم أن الرجل إذا تراجع فقد سلطته. لم تكن الاعترافات متساويةً في آثارها، ولم يعفِ بعضها بعضاً. لكنها خلقت في القاعة شيئاً لم يكن موجوداً قبلها: مساحةً لا يضطر فيها المرء إلى الادعاء بأنه لم يخطئ كي يُسمع.

حين تحدث سالم، قال إن المركز لا ينتزع طفلاً من أهله، ولا يقرر بدل الجهات المختصة. وظيفته أن يستقبل من يحتاج إلى أمانٍ مؤقت، وأن يساعد على طلب الدعم، وأن يذكرّ الكبار بأن للطفل حقاً في ألا يؤذى. ثم قال إنه يعرف كيف

يبدو البيت حين يحب أهله بعضهم ويحرج بعضهم؛ ولذلك لا يريد أن يختزل الآباء في شرٍ كامل، ولا أن يجعل الحبّ شهادة براءة. كانت الجملة أهدأ من أن تُسكت القاعة، لكنها جعلت بعض الوجوه تنخفض، كأن أصحابها سمعوا فيها اسماً لم يريدوا تذكره.

وقف ناصر في آخر الصف. لم يتكلم عن طفولته، ولم يطلب من أحد أن يصدقّه. قال إنه عاد رجلاً يحمل مسؤولية ما فعله، وإنه لن يستخدم ما فعله أبوه لتبرير ما فعله هو. ثم أضاف أن من يتألم يستحق من يصغي إليه، لكن من آذى غيره لا يملك حق مطالبتهم بأن ينسوا. لم يصفق له أحد. كان ذلك حسناً؛ فالتصفيق قد يحول الاعتراف إلى مشهدٍ جميل يخرج الناس بعده كما دخلوا. انتهى الاجتماع بلا اتفاقٍ كامل، لكنه انتهى بقرار إنشاء فريقٍ محلي يتابع حالات الأطفال بالتنسيق مع المختصين، وبالتزام أن تُسجل الشكاوى بدل أن تُدفن في المجالس.

بعد الاجتماع، اعترض رجلٌ على إنشاء فريق المتابعة، وقال إنهم يفتحون أبواباً لا يستطيعون إغلاقها. ردّت عليه أم خليل بأن الأبواب كانت مفتوحة أصلاً، لكنهم كانوا يتظاهرون بأنهم لا يرون من يعبرها خائفاً. صمتت القاعة. لم يُبلغ الاعتراض، بل كتبوه ضمن المخاوف التي ينبغي أن يجيب عنها الفريق: كيف يحمون الخصوصية؟ كيف يراجعون قراراتهم؟ من يراقب من؟ لم تنتهِ الشكوك،

لكنها وجدت مكاناً في النقاش بدل أن تعمل في الخفاء. عرف سالم أن المجتمع لا يتغير حين يختفي الخلاف، بل حين يصبح الخلاف مسؤولاً عن نتائجه.

بعد شهرٍ من الاجتماع، عقد الفريق أول مراجعةٍ لعمله. اعترفوا بأنهم لم يخبروا الأطفال بما يحدث في كل خطوة، وأن بعض المتطوعين دخلوا الغرف دون طرق. لم يخفوا الأخطاء في محضر الاجتماع، ولم يكتفوا بتوبيخ شخصٍ واحد. وضعوا إجراءً واضحاً: يطرق الداخل، يعرف بنفسه، وينتظر الرد، ويسجل أي استثناءٍ لضرورةٍ عاجلة. طلبت أمينة أن يقرأوا الإجراء على الأطفال بلغة يفهمونها. قال سالم إن النظام الذي لا يعرفه من يفترض أن يحميهم ليس نظاماً لهم. وحين عرضوه على عاصم ورامي، أضافا جملةً عن حق الطفل في طلب شخصٍ يثق به.

الفصل التاسع عشر: اليد التي ارتجفت

بعد الاجتماع، أرسل ناصر رسالةً إلى رجلٍ عمل معه قبل سنوات، يعتذر فيها عن أيامٍ كان يصرخ عليه فيها ويهدده بالفصل. لم يكن الرجل موظفًا في المركز، ولا ضحيةً من طفولته؛ كان واحدًا من آذاهم ناصر حين امتلك سلطةً صغيرة. كتب الرسالة ثم محاها ثلاث مرات، إذ بدا له في كل صيغةٍ أنه يطلب شيئًا: أن يخفف عنه ذنبه، أو أن يردّ عليه بكلمةٍ طيبة. في النهاية كتب جملتين واضحتين، وقال إنه لا ينتظر ردًا، وإنه مستعدٌّ لتحمل ما يترتب على شكواه إن أراد تقديمها.

حين ضغط زر الإرسال، ارتجفت يده. لم يكن الارتجاف خوفًا من جواب الرجل فحسب، بل من أن يرى نفسه كما كان: ليس طفلًا عند الساقية، ولا ابنًا خائفًا من أبيه، بل رجلًا اختار أن يرفع صوته على شخصٍ لا يستطيع الرد. ظن ناصر قديمًا أن الإقرار بهذا سيهدم كل ما بقي له من كرامة. اكتشف أن الكرامة لا تقوم على صورةٍ نقية، بل على قدرة المرء أن يرى فعلته من غير أن يدافع عنها، وأن يتحمل ما يستطيع إصلاحه، ثم يتوقف عن تكرارها.

لم يأتِ الرد في اليوم نفسه. في اليوم التالي، وصلته رسالةٌ قصيرة: «قرأت ما كتبت. لا أستطيع أن أسامحك الآن. لا نتصل بي». ظلّ ناصر يقرأها طويلًا، ثم أغلق الهاتف. لم يحاول أن يشرح للرجل أنه تغير، ولم يطلب من سالم أن يقنعه.

قال لأمينة إنه خسر فرصةً لإصلاح العلاقة. أجابته: «أنت لا تملك العلاقة كي تمنحها أو تستعيدها. تملك فقط ألا تكذب في اعتذارك». كان الردّ قاسياً بقدر ما احتاج؛ فالاعتذار الذي لا يقبل احتمال الرفض ليس اعتذاراً، بل طلبُ غفرانٍ مستتر.

عاد إلى عمله في المركز. كانت يده ما تزال ترتجف قليلاً حين يرفع الكوب، لكنه لم يخفها. رأى عاصم ذلك، فسأله إن كان مريضاً. قال ناصر: «أنا متوتر، وسأهدأ». ثم أخذ نفساً عميقاً وجلس على مقعدٍ بعيد. لم يعطِ الطفل عبثاً ليطمئنه، ولم يتظاهر بالقوة. نظر إليه عاصم وقال: «أنا أيضاً أتوتر». أجابه ناصر: «أعرف». في تلك اللحظة لم يبدُ أيُّ منهما معلماً للآخر؛ كانا شخصين يتعلمان أن تسمية الخوف قد تمنعه من أن يتحول إلى أذى.

في الأيام التالية، لم تصل رسالةٌ أخرى من الرجل الذي اعتذر له ناصر. قاوم رغبةً في إرسال اعتذارٍ ثانٍ، إذ أدرك أن تكرار الرسالة قد يتحول إلى ضغطٍ يفرض حضوره على من طلب غيابه. وحين سأله سالم عن الأمر، قال ناصر إن الصمت جوابٌ يجب احترامه. بقيت يده ترتجف أحياناً، خاصةً حين يسمع باباً يُصفق. لكنه بدأ يلاحظ الإشارة قبل أن يشتعل. لم يكن يكتب ملاحظاته ليصنع سجلاً لانتصاراته؛ كان يكتبها كيلا يخترع بعد حين روايةً يقول فيها إنه لم يخطئ قط.

بعد شهرين، رأى ناصر الرجل الذي اعتذر له في مناسبةٍ عامة. لم يذهب إليه، لكنه لم يهرب. تبادلا نظرةً قصيرةً ثم مضى كلُّ إلى شأنه. في المساء، فكر ناصر أن التحسن لا يعني أن الجسد يتوقف عن التذكر؛ يعني أن الذاكرة لا تختار كل أفعاله. كتب ذلك في دفتره، ثم شطب كلمة «تحسن» واستبدلها بـ«تدرب». بدا له التعبير أدق. لا أحد يصل إلى نقطةٍ يضمن عندها أنه لن يؤدي، لكن بإمكانه أن يظل يتدرب على رؤية الآخرين قبل أن يرفع صوته. لم تكن الجملة إنجازاً، بل تذكيراً يحتاجه غداً.

بعد أشهرٍ من الرسالة، التقى ناصر بالرجل في ورشةٍ مشتركةٍ لإصلاح مدرسة الحَيِّ. لم يكن يعرف أن الرجل سيحضر. وقف كلاهما عند مدخل الساحة، ومرت لحظةٌ كان يمكن أن يمضي فيها كل واحدٍ بطريقه. قال ناصر إنه لن يقترب إذا كان وجوده غير مريح. أجابه الرجل بأنه يستطيع أن يبقى ما دام يلتزم بالعمل ولا يحاول فتح موضوعٍ قديم. وافق ناصر. طوال النهار عملا على طرفين مختلفين من المكان، وتبادلا الأدوات حين احتاجا إليها. لم يكن الرجل قد سامحه، ولم يعد ناصر يتخيل أن العمل المشترك يحو ما سبق. لكنه رأى كيف يبدو حدٌّ واضح لا يجرح كرامة أحد: شرطٌ معلن، يُحترم، ثم يُترك لصاحبه أن يراجع موقفه متى شاء. عند المغيب، قال الرجل: «اليوم كان مقبولاً». لم يرد ناصر بعبارةٍ كبيرة. قال: «شكراً لأنك سمحت لي أن أعمل هنا». ثم غادر دون أن يطلب موعداً آخر.

في الطريق، ارتجفت يده قليلاً، لكنه لم يعد الارتجاف فشلاً. لم يكن المطلوب أن
يحو خوفه، بل ألا يجعل الرجل يدفع ثمنه.

الفصل العشرون: لا أحد ينجو وحده

في مساءٍ صافٍ، جلس سالم وناصر على درج المركز بعد أن نام الأطفال. كان الحيّ أقلّ ضجيجاً، والهواء يحمل رائحة التراب الذي شرب المطر. قال ناصر إنه عاش أعواماً يظن أن النجاة عملٌ فردي: أن يخرج من البيت، ويكسب رزقه، ويتعلم ألا يطلب شيئاً من أحد. لكنه حين صار يملك ما يكفيه، اكتشف أنه لم يخرج من البيت؛ حمله معه في طريقة كلامه، وفي خوفه من الضعف، وفي حاجته إلى أن يسبق الآخرين بخطوةٍ كي لا يسبقوه بالأذى. قال سالم: «كثيرون يخرجون من المكان، ولا يخرج المكان منهم».

لم يحاول أن يصنعا من تلك الليلة اعترافاً عظيماً. تحدثا عن العمل، عن الأشخاص الذين ساعدهما دون أن يعرفا أسماءهم، وعن الذين مرّوا بهما ولم يلاحظوا شيئاً. أقرّ سالم أنه لم يكن لينشئ المركز وحده؛ أمينة فعلت أكثر مما فعل، والنساء اللواتي جئن بالطعام والوقت هنّ من أبقينه مفتوحاً. أما ناصر فقال إنه كان يظن المساعدة ديناً، وإن قبولها يضعه في موضع التابع. مع الوقت فهم أن بعض الأيدي لا تمتدّ لتأخذ مكانك، بل لتمنعك من السقوط حتى تستعيد توازنك.

قال سالم إن استقلال الإنسان فضيلةٌ ما دام لا يتحول إلى إنكارٍ لحاجته. ضحك ناصر وقال إن سالم صار يضع الحكم في كل جملة. ردّ عليه بأن الحياة هي التي

تفعل ذلك، أما هو فيحاول اللحاق بها. ثم سكتا. لم يكن بينهما اتفاقاً كاملاً، ولا صداقةً استعادت طفولتهما. كان ثمة شيءٌ أهدأ: إمكانية أن يعملوا جنباً إلى جنب دون أن يطالب أحدهما الآخر بنحو الماضي. في تلك اللحظة، خرج عاصم من الغرفة يبحث عن ماء. رآهما جالسين، فسأل إن كان يستطيع الانضمام. تخيلاً قليلاً، وتركاه يختار مكانه.

جلس الصبي بينهما، ثم قال إنه لا يحب حين يتحدث الكبار عن الأطفال كأنهم غائبون. وعده أن يسأله قبل أن يقررا ما يتعلق به. لم تكن جملةً عظيمة، لكنها غيرت ترتيب المقاعد. نهض ناصر ليحضر الماء، وترك سالم مع عاصم. وحين عاد، ناول الصبي الكوب لا لسالم. راقب سالم المشهد، وفكر أن النجاة قد تبدأ حين يتوقف المرء عن جعل نفسه مركز الحكاية، ويصير قادراً على أن يفسح مكاناً لآخر.

تأخر عاصم عن العودة من المدرسة يوماً، فانطلق سالم إلى الطريق، بينما اتصل ناصر بأمنية والجهة المسؤولة. وجدهما الصبي قرب الدكان؛ تعطلت حافلته، وبقي مع معلمه حتى وصل أحد أقاربه. حين رآهما، لم يعتذر عاصم عن تأخره. قال إنه لم يكن يملك هاتفاً ليخبرهم. اعتذر سالم لأنه خاف وركض قبل أن يستوضح. قال ناصر إنهم سيتفقون على طريقة للاتصال في المرات المقبلة. لم يوبخوا الطفل على

أمرٍ لم يكن في يده. في تلك الليلة، ضحكوا من فزعتهم، لكن الضحك لم يبلغ
الدرس: الاعتماد المتبادل يحتاج إلى ترتيباتٍ، لا إلى حسن الظن وحده.

بدأ أهل الحي يتناوبون على توصيل الأطفال، لكن أمينة رفضت أن تتحول
المساعدة إلى نظامٍ عشوائي. سجلوا أسماء المتطوعين، وتأكدوا من موافقة الأسر،
واحتفظ كل طفلٍ بحق أن يرفض الركوب مع شخصٍ لا يعرفه. اعترض بعضهم
على كثرة القواعد. قالت أمينة إن القاعدة ليست شكاً في الناس، بل حمايةً لمن لا
يملك القوة كي يقول لهم لا. ساعد ناصر في إعداد جدولٍ واضح، ثم طلب أن
يكون اسمه آخر القائمة لا أولها. لم يرد أن يصبح وجوده شرطاً لعمل المركز. كان
يريد أن يساهم في بناء شيءٍ يستطيع أن يستمر حتى في غيابه.

الفصل الحادي والعشرون: ما فعلناه بالصغار

اقترحت أمينة أن يعقد المركز لقاءً صغيراً يسمع فيه الأطفال أنفسهم، لا يطلب منهم سرد ما جرى، بل ليعرف ما يجعل المكان آمناً وما يخيفهم فيه. وضعت أوراقاً وألواناً على الطاولة، وقالت إن من لا يريد الكلام يستطيع أن يرسم أو يغادر. لم يكن الاجتماع درساً للكبّار، لكنه صار كذلك حين رسم رامي باباً بلا قفل، ورسمت طفلةً شجرةً لا يقطعها أحد، وكتب عاصم في ورقةٍ واحدة: «لا أريد أن يقرروا عني ثم يقولوا إنهم فعلوا ذلك لمصلحتي».

قرأ سالم الجملة بصمت، ثم طلب من الطفل أن يشرح إن أراد. قال عاصم إنه يريد أن يعرف موعد زيارة أمه قبل أن تأتي، وأن لا يُطلب منه أن يتسم لها، وأن يختار إن كان يجلس معها وحده أو بحضور أمينة. لم تكن طلباته كثيرة، لكنها كانت واضحة. دَوَّنَها سالم كما هي. كان الكبّار يظنون أن حماية الطفل تعني أن يقرروا عنه، لأنهم يخافون أن يخطئ. لكن الطفل قد يختار خطأً، وقد يحتاج إلى مساعدة، إلا أن ذلك لا يسلبه حقه في أن يعرف ما يحدث له. الحماية التي تنتزع صوته قد تكون لطيفة المظهر، لكنها تبقيه عاجزاً عن النجاة حين يغيب الحامي.

طلب رامي أن يكون في المركز صندوقٌ للشكاوى، لكنه أراد أن يعرف من يفتح الصندوق. قالت أمينة إن الصندوق لا قيمة له إذا لم يعرفوا من يقرأه، ومتى،

وكيف يمنعون الانتقام ممن كتب. اتفقوا أن تكون المفاتيح مع شخصين، وأن تُراجع الملاحظات بحضور مختصة، وأن يحق للطفل أن يطلب الحديث مباشرة. بدا الأمر إدارياً، لكنه كان اعترافاً بأن الثقة لا تنشأ من حسن نية شخص واحد؛ تحتاج إلى طريقة واضحة تحفظ الحقوق حين تتغير النيات.

في نهاية اللقاء، لم يشكر سالم الأطفال لأنهم «علموا الكبار درساً». قال لهم إن المركز سيجرب ما اتفقوا عليه، وإن لهم الحق في أن يذكروهم إذا أخفقوا. نظر ناصر إلى عاصم، فوجد في وجهه ملامح طفل لا يُختصر في ما أصابه. وحين مرّ به بعد ذلك، لم يسأله إن كان قد صار أفضل. سأله إن كان يريد أن يكمل الرسم. أجاب عاصم: «غداً». كان هذا وعداً صغيراً بالمستقبل، لا أكثر ولا أقل، ولم يحاول أحد أن يجعله أكبر مما هو.

طلبت طفلة أن تكتب قواعد المكان على الجدار، حتى لا تبقى حبيسة دفتر يقرؤه الكبار. كتبوا معاً: «لا نلص أحدًا دون إذنه»، «لا نسأل عن قصة لا يريد صاحبها أن يرويها»، «من يخطئ يصلح ما استطاع»، و«لكل طفل حق في أن يطلب شخصاً آخر». اعترض أحد المتطوعين على القاعدة الأخيرة، خشية أن تتحول إلى رفض له. قالت أمينة إن الطفل لا يدين لأحدٍ بالقرب. كتبوا القواعد بخطوط متفاوتة، وتركوا مكاناً لإضافة ما يتعلمونه. لم تصبح الجدران أكثر عدلاً بمجرد الكلمات، لكنها صارت تذكّرهم بما وافقوا عليه حين يكون النسيان أسهل.

بعد شهرٍ من تعليق القواعد، محا طفلٌ إحدى الجمل وكتب مكانها: «لا تسخروا إذا أخطأنا». لم يعرفوا من فعل ذلك. تركوا الكّابة يوماً كاملاً، ثم ناقشوا الأمر مع المجموعة. قال طفلٌ إنه كتبها لأن الكبار يضحكون حين يخطئ في القراءة. اعتذر المتطوع المسؤول، وقال إنه لم يقصد جرحه. أجابه الطفل أن النية لم تمنع الضحك. لم يطلبوا من الطفل أن يقبل الاعتذار. أصلحوا الجملة، وأضافوا إليها: «من أخطأ يصلح، ومن جُرِح يُختار إن كان يريد الكلام». كان الجدار يتغير ببطء، وكل إضافةٍ تذكّر الكبار بأن الحماية لا تُبنى مرةً واحدة.

الفصل الثاني والعشرون: بيتٌ بلا أقفال

عاد ناصر إلى البيت الذي ورثه عن أبيه، وفتح الغرف التي ظلت مغلقةً منذ وفاته. لم يجد فيها سرّاً كبيراً، بل أثاثاً مغطى بالغبار، وثوباً قديماً، ومجموعة مفاتيح لا يعرف أبوابها. كان قد فكر في بيع البيت مراراً، ثم تركه كما ترك أشياء كثيرة: معلقةً في منطقةٍ لا قرار فيها. هذه المرة دخل كل غرفةٍ، وفتح النوافذ، وكتب ما يحتاج إلى إصلاح. لم يكن يريد أن يجعل البيت نصباً لماضيه، ولا أن يحوه كأن شيئاً لم يقع. أراد أن يعرف إن كان المكان يستطيع أن يؤدي وظيفةً أخرى غير احتجاز الذكريات.

عرض على سالم وأمينه أن يخصصوا جزءاً منه للأنشطة النهارية للأطفال، بشرط أن تديره لجنةٌ من أهل الحيّ والمختصين، وأن تبقى حدود الزيارات واضحة. لم يقبل سالم العرض مباشرةً. سأله عن الملكية، وعن طريقة حماية الأطفال، وعن مصير البيت إذا تغير موقف ناصر. لم يغضب ناصر من أسئلته. قال إنه يريد أن يكتب كل شيءٍ رسمياً، وأن يتنازل عن حقه في التدخل في تفاصيل العمل بعد تسليم المكان. لم يكن العطاء وحده يكفي؛ فقد يتحول البيت الموهوب إلى سلطةٍ أخرى إذا ظل صاحبه يقرر من يدخل ومن يبقى.

بدأوا بإزالة الأقفال التي لا حاجة لها، مع إبقاء ما يلزم للخصوصية والسلامة. أصلحوا السقف، وطلوا الجدار بلون فاتح، وتركوا في غرفة واحدة أثراً من الجدار القديم كي لا يبدو المكان جديداً كذبةً فوق تاريخٍ قديم. ساهم أهل الحي بما استطاعوا: نجارٌ صنع رفوفاً، امرأةٌ أحضرت ستائر، شابٌ أصلح النافذة. لم يكتبوا على الباب اسم ناصر، ولم يسموا المكان باسمه. كتبوا فقط: «بيت النهار». لم يكن بيتاً بديلاً عن الأسرة، ولا عقوبةً لها؛ كان مساحةً يستطيع الطفل أن يتعلم فيها، وأن يعود منها إذا كان البيت الذي ينتظره آمناً.

في أول يومٍ لفتح المكان، وقف ناصر عند العتبة ولم يدخل حتى دعتة أمينة. قال إن البيت ظلّ طويلاً يفتح لمن يملك المفتاح وحده. أجابته: «الآن له أكثر من مفتاح، وله نظامٌ لا يتوقف عليك». ابتسم. لم تكن العبارة إقصاءً؛ كانت شرطاً يحمي الفكرة من أن تصبح امتداداً لشخصه. في الداخل، ركض الأطفال بين الغرف. أما ناصر فوقف لحظةً قرب النافذة التي كان أبوه يغلقها، ثم فتحها على الآخر. لم يختفِ الماضي، لكن الضوء دخل.

في الغرفة القديمة التي كانت لأبيه، وجد ناصر صندوقاً فيه دفتر أجورٍ ورسالةٌ لم تُرسل. لم يفتح الرسالة وحده؛ أخذها إلى أمه قبل أن يعرف ماذا فيها، لكنها كانت قد ماتت منذ أعوام. جلس في البيت الفارغ وقرأها بصوتٍ منخفض: كتب أبوه إلى أخيه أنه لا يعرف كيف يكون أباً، وأنه يخاف أن يكرر ما فعله به

والده. لم تكن الرسالة اعتذاراً عن أفعالٍ لم يسمّها، ولم تبرئه. لكنها جعلت ناصر يرى سلسلةً من الخوف امتدت عبر رجالٍ لم يتعلموا الكلام. وضعها في ظرفٍ، لا ليعلقها في بيت النهار، بل ليحتفظ بها كجزءٍ من الحقيقة، لا كلها.

حين انتهى ترميم البيت، أقامت لجنة الحيّ جلسةً لتحديد قواعد استخدامه. عرض ناصر أن يضع البيت باسم جهةٍ مستقلةٍ تديره، حتى لا يبقى مصيره معلقاً برغبته. احتاج الأمر إلى أوراقٍ ومشورةٍ قانونيةٍ، ولم ينجز في يومٍ واحد. لم يتظاهروا بأن النية تكفي لنقل الملكية بأمان. خلال ذلك، بقي البيت مفتوحاً للأنشطة تحت إشراف اللجنة. كان ناصر يعود كل أسبوعٍ ليتأكد من أعمال الصيانة، لكنه لا يغير شيئاً دون موافقة أمينة. للمرة الأولى، صار البيت الذي ورثه مسؤوليةً مشتركةً، لا امتداداً لسلطة أبيه ولا ملكاً لندمه.

لم يكن فتح البيت القديم للناس سهلاً على أم سالم. حين زارته أول مرة، وقفت عند العتبة ولم تدخل. قالت إنها لا تريد أن تجلس في المكان الذي كان زوجها يرفع صوته فيه. لم يطلب منها ناصر أن تتجاوز ذلك من أجل الفكرة. قال إن بإمكانها أن ترى الحديقة فقط، أو ألا تأتي أبداً. اختارت أن تمشي في الفناء، ثم سألت إن كان يمكن وضع مقعدٍ قرب الشجرة. لم تسأل عن الغرف. وضعوا المقعد بعد أسبوعٍ، وأصبحت تجلس عليه أحياناً حين تأتي لخياطة الثياب. لم يتحول البيت إلى مكانٍ محايد، ولم تختفِ ذاكرته؛ لكنه صار يحمل فعلاً جديداً لا يلغي

القديم. قالت أم سالم إن المكان لا يعتذر، لكن الناس يستطيعون أن يغيروا ما يفعلونه فيه. ظلت الغرفة الداخلية مغلقةً مدةً أخرى، حتى قرروا أن يفتحوا نافذتها ويجعلوها مخزنًا للأدوات. لم يجبرها أحدٌ على دخولها. تعلموا أن إصلاح بيتٍ قد يبدأ بقبول أن بعض أبوابه ستظلّ مغلقةً لأسبابٍ مشروعة.

الفصل الثالث والعشرون: الصباح الذي تأخر

قبل افتتاح «بيت النهار» بأيام، اختفى رامي بعد شجارٍ في منزله. لم يكن غيابه طويلاً، لكنه أعاد إلى المركز ذلك النوع من الخوف الذي لا يصرخ؛ أمينة تتصل بالأقارب، وسالم يراجع الطرق التي اعتاد الفتى أن يسلكها، وناصر يظل واقفاً قرب الباب كي لا يفوته أحد. كان الليل يقترب، والهواتف لا تجيب. شعر ناصر بأن جسده يريد أن يركض وحده إلى البيت، وأن يقتحم الباب كما كان يفعل في أيام مضت. تذكر الخطوة التي اتفقوا عليها، واتصل بالموظفة المسؤولة، ثم أخبر سالم بما يريد فعله قبل أن يتحرك.

لم تكن الاستجابة سريعة. بحثوا في الأماكن التي يعرفونها، وسألوا دون أن ينشروا صورة الفتى بين الناس، كيلا يتحول خوفه إلى فرجة. قرابة منتصف الليل، اتصل رامي من هاتفٍ عام قرب محطة الحافلات. قال إنه لا يريد أن يعود إلى البيت تلك الليلة، ولم يذكر أين كان. لم يطلب ناصر منه أن يتق به؛ قال له إن الموظفة ستأتي معه، وإنه يستطيع أن يختار إن كان يريد رؤية سالم أو أمينة عند وصولهما. وبعد دقائق، عاد الاتصال وانقطع. كان كل قرارٍ بطيئاً، وكل دقيقة طويلة، لكنهم لم يحولوا قلقهم إلى ضغطٍ على الصبي.

وصلت أمينة إلى المحطة أولاً، وجلسَت على مقعدٍ قريبٍ من المدخل. لم تناديه. تركت له رسالةً تقول إنها تنتظره في المكان، وأنه يستطيع أن يراها أو يرحل إلى موضع آخر إذا شعر بالخطر. حين ظهر رامي، كان متعباً، ووجهه يابساً من البرد. نظر حوله قبل أن يقترب. لم يسأله أحد أين قضى الساعات، ولا لماذا لم يعد. أعطته أمينة معطفاً، ثم سألته إن كان يريد ماءً. هزّ رأسه. بدا سالم على وشك أن يربت على كتفه، لكنه تراجع حين رأى الصبي يشدّ ذراعيه حول نفسه.

في الطريق إلى المكان الآمن، قال رامي إنه لم يكن يريد أن يموت، لكنه أراد أن يختفي لبعض الوقت. لم يحوّل أحد العبارة إلى توبيخ أو استعارةٍ عن الحياة. قالت الموظفة إنهم سيبقون معه، وإنهم سيبحثون عن دعمٍ مختص، وإنه ليس مضطراً أن يشرح كل شيءٍ في هذه اللحظة. جلس ناصر في المقعد الأمامي، ولم يلتفت مراراً إلى الخلف ليطمئن. اكتفى بأن يبطئ حين اهتزت السيارة فوق الحفر. كانت رعايته هادئةً هذه المرة، لا تطلب من الفتى أن يرى فيها بطولة.

لم يطلع الصباح في موعده الذي أراده سالم؛ تأخر الضوء خلف سحبٍ ثقيلة، وبدأت المدينة منهكةً. لكن رامي نام أخيراً في غرفةٍ يعرف بابها ومخرجها، وأمينة قربه، والموظفة نتابع معه. خرج ناصر إلى الساحة، وجلس على درجةٍ باردة. قال لسالم إنه كان يخشى أن يكرر في تلك الليلة خطأه القديم: أن يظن أن الإنقاذ يعني أن يقرر عن الآخر. قال سالم إنهم لا يضمنون ألا يخطئوا، لكنهم يقدرّون أن

يلاحظوا، وأن يصححوا، وأن يعودوا إلى الشخص المعني بالسؤال. بقي الصباح متأخراً، غير أن أحداً لم يعد وحيداً في العتمة.

بعد عودة رامي، اجتمعوا معه في اليوم التالي لوضع خطةٍ لما إذا احتاج إلى الخروج مرةً أخرى. اختار بنفسه شخصين يتصل بهما، ومكاناً عاماً يستطيع الوصول إليه، وإشارةً يرسلها إذا لم يقدر على الكلام. كتبوا الخطة بخط يده، وراجعوها مع المختصة كيلا تصبح بديلاً عن الرعاية المناسبة. قال إنه لا يريد أن يبقى تحت المراقبة. وافقوه على أن الخطة ليست مراقبةً، وأن لهم أن يسألوه عما يحتاج إليه دون أن يقتفوا خطواته. كان الفرق مهماً بالنسبة إليه: أن يجد من ينتظره، لا من يحاصره.

بعد أسبوعٍ من عودة رامي، جلس مع سالم ووضعوا خطةً بديلةً إذا تعطل هاتفه أو الحافلة. اختار رامي مكتبةً عامةً قريبةً كنقطة لقاء، وأصرّ ألا تكون محطة الحافلات لأنها مزدحمة. كتب سالم الخيارات دون أن يضيف اقتراحاته. سأل الفتى إن كان يريد أن يعرف من سيتصل به إذا تأخر. قال نعم، فكتبوا اسمين ورقمين. شعر سالم بالراحة حين انتهوا، لكنه لم يقل للطفل إن الأمر صار مضموناً. قال إنهم استعدوا بقدر استطاعتهم، وإنه يحق له أن يطلب مساعدةً أخرى إذا لم تنجح الخطة. صار المستقبل أقل غموضاً، لا لأنه صار تحت سيطرة الكبار، بل لأن الطفل شارك في رسمه.

بعد تلك الليلة، عاد رامي إلى مدرسته تدريجياً. طلب أن يبدأ بنصف يوم، ثم يقرر بعد ذلك. لم يعترض أحدٌ بحجة أن الالتزام أهم من شعوره. استقبلته معلمته عند الباب، وأخبرته أين يمكنه أن يذهب إذا ازدحم الصف أو ارتفع الصوت. في اليوم الأول، جلس قرب النافذة، وأبقى حقيقته في حضنه. لم يقرأ شيئاً، لكنه بقي حتى الظهيرة. في نهاية الأسبوع، قال لسالم إنه لم يعد يخاف من المدرسة كلها، بل من لحظاتٍ بعينها: صوت كرسي يُجرّ، أو رجلٍ يطرق الباب بقوة. كتبوا هذه التفاصيل في الخطة، لا ليجعلوا العالم بلا أصوات، بل ليعرف رامي أن خوفه مفهومٌ وأنه يستطيع طلب استراحة. زار أخوه الأكبر المركز بعد أن وافق رامي على اللقاء. لم يقدم اعتذاراً متقناً؛ قال إنه لا يريد أن يصير مثل أبيهما، لكنه لا يعرف كيف يتكلم دون أن يغضب. لم يطلب رامي منه وعداً. قال له أن يبدأ بالأصرخ. كانت بدايةً قابلةً للاختبار. لم يتغير البيت كله في يومٍ واحد، لكن صار فيه شخصٌ واحد على الأقل يعرف أن القسوة ليست قدراً عائلياً.

الفصل الرابع والعشرون: حق في الآ تسامح

في أول أسبوع من تشغيل بيت النهار، جاء الرجل الذي اعتذر له ناصر. لم يدخل. وقف عند البوابة، وقال إنه جاء ليتأكد من أن ناصر لا يقترب من الأطفال من غير إشراف. لم يكن في صوته عداءً ظاهر، لكن الحذر فيه كان كافياً. أقرّ ناصر بأنه يملك الحق في السؤال، وأراه النظام المكتوب وجدول الإشراف. قال الرجل إنه لا يريد أن يفتح حديثاً عن الماضي، وإنه لا يسامحه. لم يبدُ ناصر متفاجئاً؛ كان قد تلقى الرسالة، لكنه لم يتوقع أن يسمع الكلمات وجهاً لوجه.

قال: «أفهم». ثم سكت. كاد أن يضيف أنه تغير، وأنه يعمل على نفسه، وأنه لم يعد ذلك الرجل. لكنه أدرك أن هذه المعلومات لا تلزم المتأذي بشيء. سأله الرجل إن كان يفهم حقاً، فقال ناصر إنه لا يستطيع أن يفهم كامل ما تركته أفعاله فيه، لكنه يستطيع أن يحترم حدوده. طلب الرجل ألا يرأسله ثانية، فوعده ناصر بذلك. لم يطلب مصافحةً ولا فرصةً أخرى. حين غادر الرجل، بقي واقفاً دقيقةً، ثم دخل من الباب الذي صار يملكه الجميع، لا كي يلحق به.

رآه سالم، ولم يواسه. سأله إن كان يريد أن يجلس. قال ناصر: «لا. أريد أن أعود إلى عملي». ردّ سالم بأن بإمكانه أخذ استراحة. قال ناصر إنه يعرف، لكنه لا يريد

أن يجعل رفض الآخر حدثاً يوقف يومه كله. لم تكن هذه لامبالاة؛ كانت محاولةً لأن يتحمل الألم دون أن يرده إلى مصدره. حمل الصناديق إلى الغرفة، وترك الباب مفتوحاً، وأكل ما بدأ. بقي في داخله ثقلٌ لا يزول، لكنه لم يحوله إلى غضبٍ على الرجل الذي رفض مساحته.

في المساء، قال لعاصم إن شخصاً لم يساعده، وإن هذا حقه. سأله الطفل: «هل ستساعده أنت؟». قال ناصر إنه لا يعرف، وإن المساحة ليست صفقةً يردّ فيها كل طرف ما أخذه. ربما يساعده، وربما يبقى الندم دون أن يغسل بكلمة. ثم أضاف: «ما أستطيع فعله الآن أن أحترم ما طلبه مني». عاد عاصم إلى لعبته. لم يطلب منه أن يكون حكيماً؛ كان يكفيه أن يرى رجلاً يقبل كلمة «لا» دون أن يعاقب قائلها. ولعل ذلك كان أبلغ من أي خطاب.

حين رأى ناصر الرجل الذي رفض مساحته مرةً أخرى في السوق، غيّر طريقه كيلا يضعه في موقفٍ لا يريد. لاحظ الرجل ذلك، لكنه لم يعلق. في المساء، أخبر سالم بما فعل. سأله سالم إن كان قد شعر بالمرارة. قال إنه شعر بها، ثم تذكر أن المرارة لا تعطيه حقاً في تجاوز حدّ وضعه الآخر. لم يكن الاحترام سهلاً؛ كان يحتاج إلى أن يتخلى عن المشهد الذي يتخيل فيه نفسه متغيراً أمام جمهورٍ يقرّ بذلك. أحياناً لا يرى أحدٌ إصلاحك، وهذا لا يجعله أقل ضرورة.

في زيارةٍ لأمّ عاصم، سألت سالمًا إن كان ابنها سيحبها كما قبل. قال إنه لا يستطيع أن يعرف، ولا ينبغي لأحدٍ أن يضمن لها ذلك. بدا جوابًا قاسيًا، لكنه كان صادقًا. قالت إنها تريد أن تتغير، حتى إن لم يعد إليها. أجابها بأن هذه بدايةٌ أعدل من أن تجعل التغيير ثمنًا لعودة الطفل. مضت إلى موعدها مع المختصة، ولم تسأل عاصمًا بعدها إن كان يشاقق إليها. كانت نتعلم أن أمومتها لا تمنحها حقًا في اقتحام مسافته. وفي المساء، أخبر عاصم سالمًا أنه ربما يريد لقاءها مرةً أخرى بعد أسبوعين. سجلوا رغبته، ولم يسموها وعدًا.

في إحدى الأمسيات، سأل سالم ناصر إن كان ندمه قد خفّ. قال ناصر إنه لم يخفّ، لكنه لم يعد الشيء الوحيد الذي يشعر به. صار يعرف أن الندم يمكن أن يثبت له أنه أخطأ، لكنه لا يستطيع أن يعيش نيابةً عن كل من آذاهم. قال سالم إنه يخشى أحيانًا أن يكون تذكيره له بالماضي نوعًا من العقاب. أجاب ناصر بأن من حقه أن يتكلم عن جرحه، ما دام لا يطالبه بأن يعود إلى الرجل الذي كانه. ثم قال إنه لا يريد أن يطلب من سالم صداقةً قديمة؛ إن وجدت بينهما صداقةً جديدة، فستأتي من أفعالٍ صغيرة، لا من مطالبةٍ بالوفاء لطفولتهما. لم تكن الكلمات إعلانًا عن الصفح. كان سالم لا يزال يشعر بوخزٍ حين يتذكر الساقية، وناصر لا يزال يحمل مرارةً حين يتذكر الركض. لكنهما صارا قادرين على أن

يسميا ما يشعان به دون أن يحولا الشعور إلى حكمٍ أبدي على الآخر. أحياناً يكون
الإنصاف أن يبقى الجرح ظاهراً، لكن لا يُسمح له بأن يقرر كل ما سيأتي.

الفصل الخامس والعشرون: حين صار للباب مقبض

بعد أشهر، صار لبيت النهار برنامجٌ ثابت: مراجعة دروس، وجبةٌ خفيفة، ومواعيد استماع لمن يريد الحديث، وتنسيق مع الأسر والجهات المختصة. لم تختفِ المشكلات؛ بعض الأطفال غادروا، وبعضهم عاد إلى أسرته بشروط واضحة، وبعضهم احتاج إلى مكانٍ آخر. لم يسمّوا كل عودة نجاحاً، ولا كل بقاء فشلاً. صار النجاح في أن يجد الطفل من يسمعه، وأن يعرف ما سيحدث، وأن يكون له رأيٌ فيما يمَس حياته. وكان ناصر يحضر اللقاءات بانتظام، ويتلقى تدريباً، ويقبل الملاحظات دون أن يطلب امتيازاً لأنه تغيّر.

ذات ظهيرة، وصل سالم متأخراً، فوجد عاصماً يثبت مقبضاً جديداً لباب غرفة الرسم. قال له الصبي إن المقبض القديم لم يكن يعمل، وإن الباب إذا أغلق من الداخل تعذر فتحه. ساعده ناصر في تثبيته، لكنه ترك لعاصم اختيار موضعه. صار بوسع الطفل أن يفتح الباب بنفسه، وأن يتركه موارباً، أو يغلقه إذا أراد بعض الهدوء. لم يعد الباب حدّاً يفرضه الكبار، بل شيئاً يُستعمل بحسب حاجة من في الغرفة. تأمل سالم المقبض وقال إن الأشياء الصغيرة قد تعلّمت معنى كبيراً. ضحك ناصر: «ها أنت تعود إلى الحكم».

في ذلك اليوم، زارت أم عاصم المركز بإذنٍ مسبق. لم يُجبر الصغير على استقبالها. اختار أن يجلس معها عشر دقائق بحضور أمينة، ثم طلب أن تنتهي الزيارة. احترمت أمه طلبه، ولم تقل إنه يجرحها. بكت بعد أن خرج، لكن بكاءها لم يكن دليلاً على أن عاصم أخطأ. جلس الصبي في غرفة الرسم، وأغلق الباب ثم فتحه. لم يكن قد سأل أمه، لكنه صار قادراً على أن يراها دون أن يدفع إلى قرارٍ أكبر من طاقته. لم يسم أحد ذلك مصالحةً؛ كان لقاءً واحداً، وله قدره.

في المساء، أعاد سالم المفتاح الصديء إلى جيبه بعد أن وضعه أشهراً في درج المكتب. سأله أمينة عن سبب احتفاظه به. قال إنه مفتاح لا يفتح شيئاً، لكنه يذكره بأن بعض الأبواب لا تُفتح بالقوة، وأن القفل ليس دائماً على الجهة الأخرى. رفع ناصر حاجبه وقال إن العبارة ستعجبه كثيراً. أجابه سالم أن يتركها له، فهو لا يملكها وحده. ضحكا، لا لأن كل شيء صار بخير، بل لأنهما لم يعودا مضطرين إلى الوقوف على حافة الماضي طوال الوقت.

في حفل افتتاح بيت النهار، طلب الأطفال ألا يلتقي خطابٌ طويل. علّقوا رسوماتهم، ثم فتحوا الباب بأنفسهم. جاء أهل الحيّ، وجلس بعضهم في الساحة. لم يذكر أحد اسم ناصر بوصفه صاحب البيت؛ ذكروه مع من أصلحوا الجدار ودهنوا النوافذ. بدا عليه ارتياحٌ لم يحاول إخفاءه. وقف عند آخر الصف، وتحدث مع رجلٍ كان قد انتقده. لم يصيرا صديقين، لكنهما اتفقا على موعدٍ للمساعدة في

إصلاح السقف. لم يتأسس المكان على حكاية بطلٍ واحد؛ تأسس على أعمالٍ صغيرةٍ كثيرة، وعلى نظامٍ يذكر كل شخصٍ أن النية الطيبة لا تعفيه من المسؤولية.

في يوم الافتتاح، تأخر ناصر عن الحفل لأن الرجل الذي أصلح معه السقف احتاج إلى من يساعده في نقل الأدوات. لم يغضب أحد. حين وصل، كان الأطفال قد قصّوا الشريط بأنفسهم، وفقاً لما طلبوا. وقف ناصر عند الباب، وشاهد عاصم يفتح المقبض ويغلقه عدة مرات. لم يقل له أن يتوقف. سأله الصغير إن كان يزعجه الصوت. قال ناصر إن الأمر لا يزعجه، لكن إذا أراد أن يهدأ المكان يمكنهما وضع قطعة مطاطية. اختار عاصم أن يضيفها لاحقاً. لم يكن الباب درساً رمزياً بالنسبة إلى الطفل؛ كان شيئاً يعمل الآن، ويمكن تحسينه إن احتاج.

في نهاية يوم الافتتاح، بقي طفلٌ جديد عند البوابة ولم يدخل. كان والده ينتظر في السيارة، وقد قال له إن المركز مكانٌ للأولاد الضعفاء. لم يحاول سالم إقناعه بأن المجيء شجاعة؛ مثل هذه العبارة قد تحوّل خوف الطفل إلى امتحانٍ آخر. خرجت أمينة وجلست على المقعد القريب من العتبة، وتركت له كيساً فيه تفاحة. قالت إن المكان سيظلّ مفتوحاً حتى المساء، وإنه يستطيع أن يقرر بنفسه. بعد دقائق، أكل التفاحة وهو واقف. لم يدخل ذلك اليوم. في الأسبوع التالي عاد، ثم جلس عند الباب، وبعدها دخل إلى الساحة. لم يصبح المركز خلاصاً فوراً، لكنه صار احتمالاً لم يكن موجوداً من قبل. رأى ناصر الطفل وذكر

نفسه حين كان يظن أن كل بابٍ يفتح على امتحانٍ أو عقوبة. لم يقل له شيئاً.
اكتفى بأن أصلح المقبض الذي ظلّ يرتخي، ثم أعاد المفك إلى الصندوق. أحياناً
لا يحتاج القادم إلى خطبة؛ يحتاج إلى أن يجد الباب يعمل حين يقرر أن يجربه.

الفصل السادس والعشرون: الجملة الأخيرة

في أول صباح بارد من الشتاء التالي، وقف سالم في الممرّ نفسه الذي رأى فيه ناصر أول مرة. كان المطر يطرق الزجاج، لكنه لم يعد يبدو كاعتذارٍ عن غيابٍ طويل. صار المطر مطراً فحسب؛ ماءً ينزل على المدينة، يبلل الدرجات، ويوقظ رائحة التراب. جاء ناصر يحمل كيس خبز، ووضعه على الطاولة. قال إنه اشترى من الخبز الصحيح هذه المرة. ابتسم سالم، ثم أشار إلى كرسيّ قرب النافذة. في الساحة، كان عاصم ورامي يختلفان على لون الطلاء، ويتركان مساحةً بيضاء في منتصف الجدار كي يكملها لاحقاً.

جلس الرجلان من غير أن يتبادلا حكايةً عن التغيير. لم يصبح ناصر رجلاً آخر بين ليلةٍ وضحاها، ولم يستعد سالم طفولته ليعيشها بصورةٍ أفضل. بقي في ناصر غضبٌ يحتاج إلى انتباه، وبقي في سالم خوفٌ يظهر أحياناً حين يسمع صوت بابٍ يُغلق بعنف. لكن كليهما صار يعرف شيئاً لم يعرفه من قبل: أن الماضي يمدّ يده، ولا يلزم أن نمسك بها كل مرة. وأن الإنسان لا يُختصر في جرحه، ولا يُغفى من أفعاله لأنه جُرح. بين الأمرين طريقٌ ضيق، لكنه ممكن، ويُصنع باختياراتٍ متكررة لا بعبارةٍ واحدة.

نظر ناصر إلى سالم وقال: «لو قلتَ لي يومَ عدتُ إنك ستسأحي، لما صدقتك». أجابه سالم: «ولم أكن أملك أن أعدك بذلك». قال ناصر إنه كان يظن أن الاعتذار بوابةً للعودة، ثم عرف أنه بابٌ يفتحه المتأذي من جهته، متى شاء أو لا يفتحه. أوماً سالم. لم يسأله إن كان قد سأحه؛ لم يعد يريد من ناصر جواباً ينقذ صورته. قال فقط إنه سعيد لأنهما صارا قادرين على الجلوس في الغرفة نفسها من غير أن يتظاهرا بأن ما جرى لم يقع.

بعد انفضاض الناس، بقي سالم وناصر في الممر. أعاد سالم ترتيب الكراسي، بينما أغلق ناصر النافذة التي دخل منها المطر. توقفا عند الباب القديم، حيث التقيا أول مرة. قال ناصر إنه لا يعرف إن كان الماضي قد خف. قال سالم إنه ربما لم يخف، لكنه لم يعد يقف في كل طريق. خرجا إلى الساحة، فوجدَا عصماً قد ترك على الجدار مساحةً بيضاء كما وعد. سأله أمينة إن كان يريد أن يكملها غداً. قال: «حين أعرف ماذا أرسّم». لم يطلبوا منه جواباً أسرع. بقي البياض هناك، لا نقصاً ينبغي ستره، بل مكاناً محفوظاً لاختيارٍ لم يأتِ بعد.

لم يكتب سالم الجملة التي افتتحت الحكاية على الجدار، مع أنها ظلت ترافقه. لم يرد أن تتحول إلى قاعدةٍ يُحاسب بها كل من يتألم، أو إلى حجرٍ يُرمى في وجه من لم يقدر على النهوض بعد. كان يعرف أن اختيار الإنسان مهم، لكنه يعرف أيضاً أن الناس لا يقفون في الموضع نفسه من القوة والوقت والمعونة. لذلك ترك الجملة بينه

وبين ناصر، في الممر الذي شهدها. أما على الجدار، فتركوا مساحةً للرسم والاعتراض والتعديل. صار ختام الحكاية أقل شبهاً بحكمة جاهزة، وأكثر شبهاً بابٍ له مقبض: يمكن أن يُفتح، ويمكن أن يُغلق، وصاحب الغرفة يشارك في الاختيار.

مرّ عامٌ على اليوم الذي عاد فيه ناصر إلى الحيّ. لم تُعلن المناسبة، ولم يضعوها احتفالاً. في دفتر المركز، ظهرت أسماء جديدة، وبعض الأسماء القديمة خرجت إلى بيوتٍ تحسنت أحوالها، وبعضها انتقل إلى رعايةٍ أكثر تخصصاً. لم يكتب سالم كلمة «نجا» إلى جوار أحد؛ لم يكن يعرف كيف تنتهي حياة الناس، ولا يريد أن يحوّلهم إلى نتائجٍ في سجل. لكنه كتب المواعيد التي حضروا فيها، والقرارات التي اختاروها، والأبواب التي طرّقوها. زارهم الرجل الذي رفض مسامحة ناصر مرةً أخرى، لا ليعتذر، بل ليضع أدواتٍ تبرع بها على الطاولة. لم يتبادلا حديثاً عن الماضي. قال ناصر شكراً، وأجابه الرجل بإيماءٍ قصيرة. لم يكن ذلك صلحاً، لكنه كان عملاً مشتركاً محدوداً، لا يطلب أكثر مما يمنحه. في الظهيرة، رسم عاصم على الجدار نافذةً كبيرة، وترك خارجها مساحةً بيضاء. سألته أمينة إن كان سيملوها. قال إنه لا يعرف بعد. كان قد صار قادراً على ألا يعرف، وألا يستعجل جواباً كي يطمئن الكبار. نظر سالم إلى ناصر، ثم إلى الباب ذي المقبض الجديد. مرّت الجملة القديمة في ذهنه، لكنها لم تعد حكماً على أحد. صارت تذكيراً لهما معاً: أن

الألم يفسر الطريق الذي جئنا منه، لكنه لا يملك وحده أن يكتب الطريق الذي
تمضي فيه.

نهض سالم حين نادته أمينة. مرّ قرب عاصم، فرأى الصبي يلوّن الجدار بأزرقٍ
واسع. لم يكن الرسم بيتاً ولا طريقاً ولا نافذة؛ كان مساحةً من اللون لا يحدها
إطار. قال له إن اللون جميل. ردّ عاصم بأنه لم ينتهِ بعد. تركه سالم يكمل. في
الخارج، خفّ المطر، وانفتح باب المركز على هواءٍ بارد. حمل ناصر كيس الخبز
إلى الداخل، بينما بقي الباب موارباً، لا لأن أحداً نسي إغلاقه، بل لأن من في
البيت عرفوا أنهم يستطيعون أن يختاروا.

خاتمة: ما يتركه الباب مفتوحاً

في ربيع العام التالي، جاءت إلى بيت النهار امرأةٌ تحمل طفلاً نائماً على كتفها. لم تكن تعرف أحداً، ولم ترد أن تشرح قصتها في الساحة. قالت لأُمينة إنها سمعت عن المكان من جارتها، وإنها لا تعرف إن كان يحق لها أن تطلب المساعدة. لم تُجِب أُمينة عن الاستحقاق؛ فتحت لها الباب، ودعتها إلى غرفةٍ هادئة، ثم سألتها إن كانت تريد ماءً أو أن تجلس وحدها قليلاً. اختارت الماء. لم يكن استقبالها وعداً بأن كل شيءٍ سيُحلّ، لكنه كان أول موضعٍ لم تُسأل فيه لماذا تأخرت، ولا كيف سمحت للأمور أن تصل إلى هذا الحد. جلس سالم خارج الغرفة، ولم يحاول أن يسمع. في أحيانٍ كثيرة، يبدأ الإنصاف من احترام ما لا يحق لنا معرفته.

كان ناصر في الساحة يصلح مقعداً خشبياً مع رامي. صار رامي يزور بيت النهار بعد المدرسة، ثم يذهب إلى بيته في الوقت الذي اتفق عليه مع أسرته والباحثة الاجتماعية. لم تُنمَح خلافاته مع أخيه، لكنها صارت تُقال قبل أن تتحول إلى شجار. أما عاصم فكان يختار زيارة أمه مرةً كل أسبوعين، وأحياناً يطلب تأجيلها. لم يعد أحدٌ يعدّ التأجيل انتكاسةً أو اللقاء مصالحةً نهائية. كان الطفل يتعلم كيف يختبر المسافة، وكانت أمه تتعلم كيف تبقى قريبةً دون أن تُتقدم أكثر مما أذن به. لم تكن الحياة تمشي في خطٍ مستقيم؛ بعض الأسابيع كانت أهدأ، وبعضها يعيد

الخوف إلى الباب. لكنهم صاروا يعرفون إلى من يتصلون، وماذا يفعلون، وكيف يتركون للطفل صوته.

في ذلك المساء، انتهى ناصر من إصلاح المقعد، ثم ظلّ جالساً عليه وحده. لم يعد يحاول أن يجمع كل ما حدث له في سببٍ واحد، ولم يعد يصف نفسه بعبارةٍ واحدة: الضحية التي لا ذنب لها، أو الرجل السيئ الذي لا أمل فيه. كان يعرف أن طفولته تشرح جانباً من غضبه، وأنها لا تتكلم نيابةً عنه حين يختار ماذا يفعل به. وكان يعرف أن الآخرين قد لا يغفرون له، وأن من حقهم أن يبتعدوا عنه. لم يعد ذلك برهاناً على أن التغيير زائف. فالتغيير ليس عقداً يوقعه الناس على بياض، بل عملٌ يواصل صاحبه القيام به حتى حين لا يراه أحد، وحتى حين لا يردّ الماضي له شيئاً.

اقترب سالم وجلس إلى جواره. لم يتكلما عن الصداقة القديمة ولا عن استعادتها؛ تركا السؤال بلا اسم. قال ناصر إنه سمع في الصباح أن أمه كانت تخاف على إخوتها، وإن هذا لا يغير ما تركه خوفها فيه. أجاب سالم بأن معرفة ما خافه الآخرون لا تُسقط ما احتاجه هو، لكنها قد تمنع الكراهية من أن تملأ الفراغ كله. قال ناصر: «لا أعرف إن كنت سامحتهم». ردّ سالم: «لا يلزم أن تعرف الآن». لم يكن بينهما اتفاقٌ على معنى الغفران. كان بينهما قبولٌ بأن الأسئلة الكبيرة لا تُحسم لمجرد أن الناس تعبوا من حملها.

قبل أن يغلقا المكان، مرّ سالم على الغرفة التي بقيت فيها الرسومات. وجد النافذة التي رسمها رامي، والبيت الذي رسمه عاصم، ومساحاتٍ من اللون أضاف إليها عشرات الأطفال خطوطهم. لم تكن الجدران سجلاً للشفاء؛ بعضها حمل خوفاً، وبعضها حمل ضحكاً، وبعضها بقي أبيض. لم يطلب من أحد أن يكمل البياض. أغلق دقتر المتابعة، وأبقى مفتاح الباب في مكانه المعتاد. لم يعد المفتاح الشيء الذي يحرس بيتاً من الداخل، ولا أثراً لأبٍ غائب؛ صار أداةً مشتركة، يتسلمها من عليه مناوبة الفتح ويعيدها عند الإغلاق.

في الصيف الذي تلا ذلك، صار عاصم يقرأ للصغار الجدد في الغرفة القريبة من النافذة. لم يفعل ذلك كل يوم؛ كان يختار القصة التي يحبها، ويختار متى يتوقف. ذات مرة سألته فتى أصغر منه إن كان ناصر قد صار طبيباً الآن. توقف عاصم عند الصفحة، ثم قال إنه لا يعرف إن كان الناس يصيرون طبيين إلى الأبد؛ يعرف فقط أن ناصرًا يحاول، وأنه إذا أخطأ يعتذر ويتعد حين يُطلب منه. لم يسمع ناصر الجواب، أو تظاهر بأنه لم يسمعه. كان في العبارة ما يكفي من العدل: لا منحه الطفل صكّ براءة، ولا اختزله في أسوأ ما فعل. وبعد أن انتهت القراءة، أعاد عاصم الكتاب إلى الرف، واختار قصةً أخرى للصباح التالي. لم يعد مجرد طفلٍ ينتظر أن يقرر الكبار مصيره؛ صار له رأيٌ في ما يقرأ، وفي من يجلس قربه، وفي الوقت الذي يريد أن يمنحه للآخرين.

لم يتوقف ناصر عن الذهاب إلى جلساته. كانت هناك أسابيعٌ يظن فيها أنه تقدم كثيراً، ثم يأتي موقفٌ صغير فيعيده إلى نقطةٍ ظنّ أنه تجاوزها: عاملٌ يتأخر، صوتٌ يرتفع، أو بابٌ يُصق في ممرّ ضيق. لكنه لم يعد يخفي هذه الوقائع، ولم يقل إن العودة إلى الغضب دليلٌ على أن كل شيءٍ كان كذباً. كان يكتب ما جرى، ويتحدث عنه، ويختار إن كان يحتاج إلى أن يعتذر أو يضع مسافةً أو يطلب من شخصٍ آخر أن يتولى الأمر. لم تكن التغيرات كبيرةً بما يكفي لتصنع حكايةً بطولية، لكنها كانت دقيقةً بما يكفي لتغيّر يوم إنسان. وفي إحدى المرات، قال له سالم إنه لم يعد يشعر بالخوف من أن يتركه ناصر وحيداً عند الساقية. لم يقل إنه نسي. أجابه ناصر بأن نسيان سالم ليس ثمناً لتغيّره. بقيت بينهما ذكرى، لكنها لم تعد مقعداً يجلس عليه أحدهما فوق الآخر.

في مساءٍ هادئ، عاد ناصر إلى البيت القديم قبل موعد إغلاقه. لم يدخل غرفة أبيه، وقف عند الباب وقرأ الرسالة القديمة مرةً أخرى، ثم أعادها إلى الظرف. لم تعد الرسالة وصيةً يرى بها أباه، ولا وثيقةً يتهم بها. صارت أثراً لرجلٍ خاف أن يكرر ما ورثه، ثم لم يعرف كيف يوقفه. قال ناصر لنفسه إن الخوف قد يفسر العجز، لكنه لا يعيد للآخرين ما حرموا منه. أغلق الظرف ووضعه في خزانةٍ لا يفتحها الأطفال. بعد ذلك حمل صندوق المسامير إلى الساحة، حيث كان عاصم ورامي يثبتان لوحاً صغيراً لحديقةٍ زرا فيها النعناع. انحنى يساعدهما، وسأل قبل أن

يمسك بالمطرقة. أعطياه إياها، ثم اختلفوا على موضع اللوح. ترك لهم أن يقررا. لم يكن في المشهد خلاصٌ كامل؛ كانت فيه ثلاث أيادٍ تعمل، ولكل واحدةٍ منها حقٌّ أن تقبض أو أن تترك.

في صباح اليوم التالي، أعاد عاصم المفتاح الصغير إلى ناصر. قال إنه لم يعد يحتاج إلى أمانةٍ تثبت أن الرجل سيعود؛ صار يعرف أن لكل واحدٍ منهما مفتاحه، وأن الباب لا يُفتح إلا إذا أراد من في الداخل. ابتسم ناصر وقال إن الصبي صار يختار كلماته بدقة. أجابه عاصم بأنه لم يكن يملك أن يختارها من قبل. لم يقل ناصر إنه نفورٌ به، بل سأله إن كان يريد أن يعلق المفتاح في لوحة الأدوات. وافق الصبي، فثبتهما معاً على مسمارٍ صغير. بقي المفتاح هناك، لا ذكرى للعهد القديم وحده، بل علامةً على أن الثقة لا تُنتزع؛ تُبنى من وعودٍ صغيرة تُحفظ، ومن حدودٍ لا تُكسر.

في طريق العودة، مرَّ سالم من جوار المدرسة ورأى أباً ينتظر ابنته عند البوابة. كان يحمل لها معطفاً، وحين ركضت إليه لم يرفعها عن الأرض، بل انحنى ليسمع ما تقوله. لم يعرف سالم قصتهما، ولم يحاول أن يجعل المشهد دليلاً على أن كل البيوت يمكن أن تُصلح. بعض ما يراه الإنسان ليس له، ومع ذلك يترك فيه أثراً: احتمالاً صغيراً بأن الرعاية قد تكون إصغاءً لا سيطرة، وأن القرب لا يحتاج إلى

خوفٍ كي يثبت. تذكر أباه، ثم أمه، ثم رامي وعاصماً. لم تختلط الصور كما كانت تختلط قديماً؛ صار لكل صورةٍ مكانها، ولكل حبٍّ حدوده، ولكل جرحٍ اسمه.

عند المساء، أمسك سالم دفتر المركز وراجع ما كُتب فيه خلال السنة. لم يجد صفحةً تصلح لأن تكون نهايةً للقصص. رأى مواعيد تأجلت، وأسماءً غادرت، وأخرى عادت، وملاحظاتٍ عن اعتذارٍ قبل وآخر لم يُقبل. أغلق الدفتر دون أن يحذف شيئاً. لم يكن الماضي فصلاً يمكن تمزيقه كي تستقيم الحكاية؛ كان جزءاً منها، لكنه لم يعد الصفحة الوحيدة. وفي الساحة، كان ناصر يطفئ الأنوار غرفةً غرفةً، متوقفاً عند كل بابٍ ليتأكد أن من بالداخل يعرف أنه يغادر. لم يكن يفتش عن امتنان أحد. كان يؤدي عمله، ثم يمضي. بدا الطريق خارج المركز عادياً، وهذا ما جعله ثميناً: يومٌ ينتهي بلا انتصارٍ صاخب، لكنه لا يضيف جرحاً جديداً إلى سجل الأيام.

وفي يومٍ ممطر، جاء طفلٌ جديدٌ إلى العتبة، وتوقف قبل أن يعبر. كان المطر يقطر من شعره، وعيناه معلقتين بالباب المفتوح. لم يسأله ناصر عن اسمه، ولم يقل له إن المكان آمن؛ عرف أن الأمان لا يثبت بإعلان. أشار إلى المقعد القريب، وسأله إن كان يريد أن يجلس أو يظل واقفاً. اختار الطفل الوقوف. بقي ناصر على مسافةٍ منه، وأكمل سالم ترتيب الكتب في الداخل من غير أن يلتفت كل لحظة. بعد قليل قال الصغير إنه لا يحب الأبواب المغلقة. أجابه ناصر بأن بإمكانه أن

يترك الباب مفتوحًا، وأن يغير رأيه متى شاء. لم يتحرك الطفل، لكن أصابعه ارتخت حول حافة سترته. ظلّ المطر ينزل، وظلّ الباب مكانه، لا وعدًا بحياةٍ بلا خوف، بل فسحةً يستطيع أن يدخلها إن أراد. وحين رفعت أمينة إبريق الماء، سألت الصغير إن كان يريد كوبًا. أوأمًا. كان ذلك كل ما حدث في تلك الساعة، ولم يكن قليلًا.

بعد أيام، عاد الطفل مع أبيه. لم يدخل الأب إلى الغرفة، بل بقي في الساحة ينتظر حتى ينتهي الحديث. أخبرته أمينة أن المركز لا يستطيع أن يحل محل الأسرة، وأن بقاء الصغير في بيته يحتاج إلى متابعةٍ ومساندة، لا إلى وعدٍ عابر. أصغى الرجل، ثم قال إنه لم يعرف كيف يتعامل مع غضب ابنه، وإنه كان يظن أن رفع الصوت يوقف الشجار. لم تبرئه أمينة، ولم تسحقه باللوم؛ رتبت له موعدًا مع المختصة، وشرحت أن عليه أن يقبل ألا يرى ابنه منفردًا في البداية. وافق بعد تردد. كان في الطريق إلى الباب يلتفت إلى الطفل كأنه يريد أن يستدعيه بنظرةٍ واحدة، ثم تذكر الاتفاق وخفض عينيه. اختار الصغير أن يخرج مع أمه، لا معه. لم يصرخ الأب، ولم يطلب من أحدٍ أن يشهد على حزنه. تابعهم إلى السيارة على مسافةٍ، ثم عاد إلى الموعد الذي كتبت له أمينة. لم يكن ذلك تحولًا مضمونًا، لكنه كان اختيارًا مختلفًا في يومٍ صعب. وعلى الطريق، قال الطفل إنه لا يعرف إن كان سيعود إلى المركز. قالت أمه إن القرار له. لم تسأله متى سيقدر.

في الخارج، كانت أمينة تودّع المرأة وطفلها، وتخبرها بموعدٍ محددٍ في اليوم التالي. لم تقل لها إن كل شيءٍ سيكون بخير. قالت إنها ستنتظرها عند الباب في التاسعة، وإنها إذا لم تأتِ تستطيع أن تتصل. حمل سالم كيس الخبز إلى الداخل، وسمع ناصراً يناديه من الساحة. لم يركض أحداً إلى خاتمةٍ سعيدة، ولم تُغلق الحكاية على اعتذارٍ يحو ما سبقه. مضيا معاً نحو الباب، وتركاه موارباً كما اتفقا. كانت المدينة وراءهما لا تزال مليئةً ببيوتٍ ضيقة، وأصواتٍ عالية، وأطفالٍ لا يعرفون بعد كيف يطلبون النجدة. لم يكن في وسعهما إنقاذ الجميع. لكنهما استطاعا أن يبدآ من هذا الباب، وأن يتركا فيه مقبضاً يصل إليه من يحتاجه.